الكتاب الأول

الحضارة المصرية

ودون ان نقطع في امر اقدم الحضارات واسبقها في الترتيب الزمني ، لنبدأ بمصر .

مدى الحضارة المصرية واستمرارها

الحضارة الفرعونية التي زهت وازدهرت في مصر منـــذ اواسط الألف الثالث قبل الميلاد عمرت نحواً من ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة . ففي عهد الامبراطورية الرومانية كان القوم يقدمون لآلهة مصر العبادة التي نهجوا عليها وفقاً للمراسيم التقليدية المتعارفة ، ويبنون لهم الهيـــاكل وينقشون على جدرانها رسوم الطقوس الدينية بالخط الهيروغليفي . ولم تتلاش ديانة مصر القديمة وتنسخ مناسكها ومراسمها الا مع ظهور المسيحية وغلبتها في نهاية الأمر وسيطرتها على اطراف البلاد ، بعد ان عرفت كيف تحافظ على نفسها سليمة وتحتفظ بحيويتها بالرغم من وقوع مصر تحت سيطرة الفاتحين الاجانب كالليبيين والاثيوبيين ، والاشوريين والفرس والمقدونيين . فاذا كان الاولون منهم اعتنـــقوا الديانة المصرية وتبنوها ، فالباقون ادخلوا معهم آلهتهم الوطنية لاستعمالهم الخاص . اما الاهلون فقد احتفظوا بآلهة جدودهم القدامى واحاطوا بعضها بمظاهر التكريم وبالغوا في السير على مناسك عبادتها . فالانسان لا يعرف حضارة من حضارات التـــاريخ القديم عمّرت ما عمرت الحضارة الفرعونية ، وبرهنت عن عراقة ورسوخ لا مثيل لها قط .

وغني عن القول ان الاستمرار لا يعني عدم التبـــدل . ففي مثل هذه الحقبة المديدة التي استطالت لها الحضارة المصرية القديمة ، عرفت مصر اكثر من تبـــدل وتغير وتطور في جميع نواحي الحياة وفي كافة المجالات . والديانة نفسها التي يعني مدلولها المحافظة تقدم الدليل على مـــا نقول ، ناهيك عن التطورات العديدة والعميقة معاً التي ألمت بالحياة الاقتصادية والاجتماعية في البلاد ، ولا سيما في العهود التي وقعت مصر فيها تحت سيطرة الاجنبي .

كذلك ، غني عن القول ، ان مصر ، خلال الخمسة والثلاثين قرناً التي استطالت لها الحضارة الفرعونية ، لم تحافظ على مستوى واحد من الحيوية والنشاط . فقد مرت بهـــا عهود ازدهار وتوسع واشعاع كما عرفت عهوداً اخرى من الانحطاط والخسف والسبات العميق . فقد تعاقب على

الوادي ، منذ مطلع الألف الثالث قبل الميلاد ، ثلاث امبراطوريات ، من الاسرتين الثالثة والرابعة — اي من بناة الاهرام — حتى اواخر القرن الثالث عشر قبل المسيح ، تاريخ زوال السلالة التاسعة عشرة التي ينتمي اليها رعمسيس الثاني . وبعد ذلك في القرنين السابع والثامن ، اي بين ذهاب سيادة آشور . والفتح الفارسي، عاد الى مصر شيء من حيويتها مع اسرة سايس. فاذا شئنا ان نرسم للحضارة المصرية رسماً بيانياً لم يتبع الرسم خطاً منحنياً ، مديد الطول مع مدى الأزمنة التي استطالت لها هذه الحضارة ، بل سار متعرجاً ومتكسراً بين هبوط عظيم وارتفاع شاهق .

فالحديث ، والحالة هذه عن حضارة مصرية « واحدة » ووضع صورة بيانية عامة لها عملية رهان ومجازفة ، ولكن المحاولة لها ما يبررها في ما اعتقد به المصريون واستقر في اذهانهم وما جاهروا به عالياً من ان حضارتهم حضارة استمرت دونما انقطاع .

اذا تبينا عند شعوب كثيرة الاعتقاد بعصر ذهبي، وبوضع مثالي تحقق في الماضي الاسطوري، فمن النادر جداً ان تتخذ هذه الشعوب ، من هذا العصر المثالي قسطاساً تنهج عليه وهدياً تأتم به . ولا يولي الظهر للتطور عن قصد ، لما يتبينون فيه من مفسدة ، الا قوم لفتهم العقيدة الدينية لفاً فتلبسوها وراحوا يستلهمونها في كل تصرفاتهم وافكارهم . فقد هالهم التفاوت بين الأمل الذي عقدوه على نعم الالهة وعللوا النفس بها وبين البؤس المحيق بالناس فراحوا يعللونه بالخروج على التعاليم الالهية ، ويردونه لما كان عليه الجدود من جحود لنعم الآلهة ومن جهل وجهالة فنالوا جزاء عملهم ما يتضرسون به اليوم من شقاء بعد ان فقدوا النعم والخيرات التي كانت لهؤلاء الجدود من قبل . ويبدو ان المصريين كانوا من هذا النوع من الناس . فمع انهم كانوا يقولون بالتمسك بالقديم والحفاظ عليه ، لم تبق ارادتهم جامدة . صحيح انهم لم يكونوا من المستسلمين للكآبة والقنوط ، فقد حملهم ما عرفوا به من اندفاع طبيعي ، على إحياء الماضي المجيد مع تحسرهم عليه وتحرّقهم اليه . فالشعب ، في مجموعه لم يعمر قلبه بفكرة الرقي الذين كان في مكنة المستقبل ان يحملها لهم . فقد اعوزهم ، ولا شك في ذلك ، الخيال المجنح المطمئن الذي يستطيع وحده ان يستجليه . كانت نفوسهم تهفو الى ماضي اشل كانوا عليه ، انما قضى ومضى وزال ؛ الا انه يمكن لهم ويتحتم عليهم استعادته واحياؤه . ولذا حاولنا على شاكلتهم استحضار هذا الماضي وتفهمه وتكوين صورة مثالية لهذه الحضارة الباهرة .

وحدة وفوضى

« مصر هبة النيل » كلمة مأثورة طالما نسبها الناس الى هيرودوتس المؤرخ اليوناني المشهور . والصحيح كما يصرح به هيرودوتس نفسه ان هذا القول نقله هو عن اسلافه الاغريق ولا سيما عن هيكاتيه الميلي ، احد مؤرخي اليونان ورحالتهم المشهورين في اواخر القرن السادس ومطلع القرن الخامس قبل الميلاد . وكان اليونان يطلقون القول على دلتا النيل وحدها بينما وجد هيرودوتس ان القول يجب اطلاقه على مصر كلها .

وبالفعل ، فللنيل من الاهمية الطاغية على تكوين مصر وعلى تطورها عبر التاريخ ما لا يمكن نكرانه ولا يصح تجاهله ، ولا يحتاج بالتالي الى دليل يحتج به . فالحياة في مصر ترتبط في جميع مظاهرها ونواحيها البشرية والحيوانية والنباتية بالنيل وبما يردف به مصر ، في ابان الفيضان من ماء وفير وطمي يكسبانها الخيرات والبركات الطائلة ، وهو فيضان يقع في فصل القيظ ، اي من حزيران الى تشرين الاول فتكون معجزة الماء احدى عجائب الخلق في هذا البلد . فمصر هي ، قبل كل شيء آخر ، النيل نفسه الذي يؤلف بواديه الطويل شريطاً اخضر كان ، منذ القدم ، امثل وسيلة للمواصلات ، يفيض الرفء على ما حول ضفافه من الاراضي الخضراء فتكتسي حلة سندسية . ولا تتجاوز هذه الاراضي ثلاثين الف كيلومتر مربع مساحة — اي ما يوازي مساحة بلجيكا مثلاً ، والف كيلومتر طولاً خطاً مستقيماً ، اي ما يوازي المسافة بين دنكرك في شمالي فرنسا وبربنيان في جنوبيها ، او اطول من ذلك بكثير ، اذا ما اخذنا بعين الاعتبار عطفات النهر وتعاريجه اذ ان سيره ومجراه ليس بالسير السوي القويم .

ولذا كان لا بد من وحدة للوادي ، يستطيع معها الانسان مراقبة ارتفاع مياه النهر ابان الفيضان وتنظيم عملية صرفها وتقنيتها ، وهي وحدة سريعة العطب ، سريعة الزوال اذا لم تتمكن الادارة المركزية من التغلب على عقبة المسافات والابعاد التي كانت تعترضها . والمقاطعة او المتصرفية التي نشأت حول التجمعات البشرية التي قامت على جنبات الوادي كانت تضفي على الحياة اطاراً طبيعياً . ويجب ان ننوه هنا ، ولو من طرف خفي ، بالتضاد او المنافسة القائمة بين الوادي او مصر العليا التي لم يكن عرضها ليتجاوز عشرة كيلومترات ، وبين الدلتا او مصر السفلى التي تألفت من مثلث طول ضلعه ٢٠٠ كيلومتر تقريباً حيث كانت المياه الجارية منها والراكدة تتشعب الى اقنية وترع متعددة ، فتحدث البحيرات والغياض والاجمات الغضيضة التي كثيراً ما اعتصم فيها المتمردون والخارجون على القانون والشرعية ، هرباً من وجه العدالة . وبفضل اتصال الدلتا بالبحر تم لهذه المنطقة وسائل وخدمات تجارية لم تعرف مثلها مصر العليا او الصعيد ، فقامت في الدلتا مدن عديدة كان لها من الأهمية التجارية ما لم يتوفر بعضه لمدن الصعيد ، وقام لها من المشاغل والمصالح الخاصة ما تعارض مع مصالح الريف في الوادي .

ويتوجب علينا ان نشير هنا الى عامل آخر ، عمل فعله باستمرار منذ القدم الى جانب عامل الوحدة ، الا وهو وجود قوى مركزية دافعة ، استطاعت اكثر من مرة تحقيق اهدافها معتمدة في ذلك اما على نفسها او على مساعدات الاجنبي وأثره الهدام على البلاد من الداخل . غير ان الشعور المرير بفقدان الوحدة لا يلبث ان يشتد عند مرأى المصائب والإحن التي كانت تنزل بالبلاد ، فتحول دون استثمار الارض الاستثمار المرغوب فيه كما كانت تسيء الى الأهلين في سيرتهم المألوفة والعيش الذي الفوا نهجه . ناهيك عن انها كانت تضعف الموارد التي تنهض عليها معالم

الحياة الدينية التقليدية . وهكذا ندرك حق الادراك كيف ان الشعور بالاسف كان يغمر البلاد في تلك الازمنة التي كان يضطرب فيها حبل الأمن في الداخل ، فتعاود الناس ذكرى تلك الايام الحلوة وعهود الرخاء التي كانت فيها البحبوحة والرفاهية يخيمان فيها على مرافق البـــلاد كافة . وهكذا نجـد ان التعلق بالماضي والحنين الى أيامه الحلوة ، هـذا الماضي الذي عرف الوحدة وحضنها وحافظ عليها كان الدافع اليه المصلحة العامة المشتركة .

عـزلة وأصـــالة

كره المصريين للجديد له ما يبرره العزلة التي نعموا بها . فمـــا من حضارة توفرت لها ظروف البروز والازدهار والبقـاء بمنأى عن المؤثرات الاجنبية كأنها في وعاء مغلق ، كالحضارة المصرية .

كانت مصر بفضل موقعها الجغرافي الممتـاز ، اقل دولة تعرضاً للخطر من الخـارج ، وهي ميزة تستلفت النظر والانتباه ، اذ ان الازدهار الذي نعمت به من شأنه أن يثير أطماع الراغبين وجشعهم . اما حدودها فكانت، أقل ما يمكن ان يتصوره انسان لحدود طبيعية . فقد كانت الشلالات في الجنوب معاقل في وجـه الغزاة يرومونها من هـذه الناحية . والصحارى المحيطة بالوادي من الشرق والغرب على السواء كانت تؤلف سدوداً منيعة لا ترام ، كما أن حـــدودها البحرية كانت هي الاخرى ضيقة محدودة . والى هذا ، لم يجثم على حدود مصر ، عـدو شديد الشكيمة ، يتهددها باستمرار . ولا يعني هذا الوضع المحيز ان مصر نعمت باستمرار براحة البال لم يساورها القلق على سلامتها ومصيرها . فباستثناء الصحارى العربية والليبية القاحلة الجدباء التي عزلتها من الشرق والغرب والتي كانت على الاجمال خالية من السكان ، كان لا بد لمصـــر من قوة بوليسية دوماً متيقظة للعمل والتدخل عندما تدعو الحـــاجة . وكثيراً ما اضطرتها الظروف ودعتها للمقاومة والجهاد المرير في جنوبي الدلتا وشماليها ، ولا سيما الى الشمال الشرقي ، إذ يشدها الى القارة الاسيوية برزخ ضيق . فحاربت واستماتت دفاعاً عن سلامتها او استخلاصها لاراضيها من مغتصب مستبد . وهذه المخاطر التي استهدفت لها من الخارج في العهود المتأخرة من تاريخهـا المديد ، لم تسبب لها قبل مطلع الألف الأول قبل الميـــلاد ، سوى أزمات ونكسات عابرة . وليس في تاريخها الطويل مايصح مقارنته او معارضته بهذه الحروب الاكول المنهكة التي اضطرت لخوض غمارها شعوب اخرى ذوداً عن أوطانها وذباً عن حياضها .

فالتلاحم في ساحات الوغى كثيراً ما أدى بالمدنيات القائمة وجهاً لوجه للاحتكاك والتصادم، الا أن الحضارة المصرية قلما تعرضت لمثل هذه الامور في تاريخها السحيق . وهكذا استطاعت هذه الحضارة ، أن تحافظ على أصالتها ، بايسر مما استطاعته أية حضارة اخرى . وكان من أثر هذا كله على المصريين ، ان حرك فيهم كغيرهم من الشعوب الاخرى ، الشعور بالفخر والمباهاة ، وهو شعور أشد عندهم وأقوى منه عند الغير ، كما نلحظ ذلك من كلام كهنتهم لبعض الرحـالة اليونان عندما خاطبوهم قائلين : « انتم اليونان لستم سوى اولاد صغار » . وعندما بلغ تحوتمس بجحافله الجرارة ، شواطىء الفرات ، في القرن الخامس عشر قبل الميـــلاد ، قام في مصر من

ينتقد هذا التوسع ويشجبه ، اذ رأى فيه مساً بنقاء الحضارة المصرية .

فاذا كان هناك من حضارة تستدعي عرضاً عاماً لمدنيتها لجلو وجوه التطور الذي عرفتـــه خلال تاريخها المديد ، فهي لعمري الحضارة المصرية .

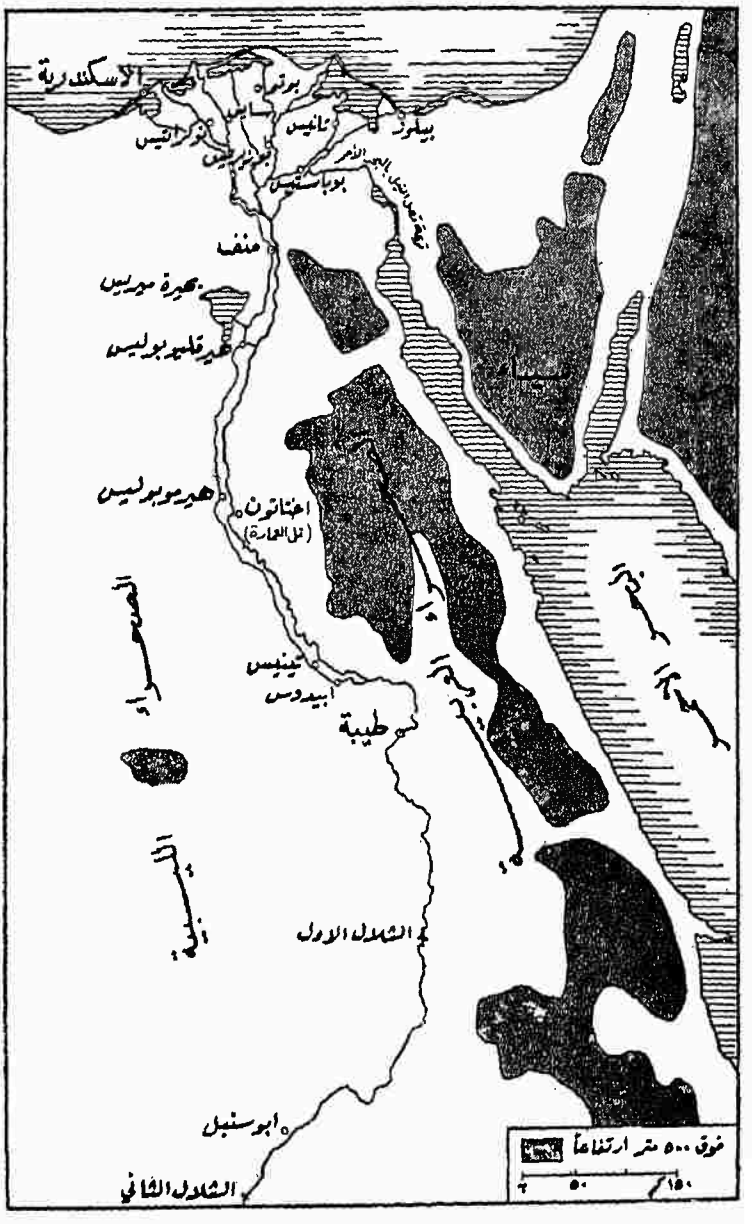

الشكل ١ – مصر

الفصل الأول

النظم السياسية

الحضارة المصرية والملكية ، هما واحد ، في المجال السياسي . فمصر تفقد معناها وتخرج عن ذاتها عندما لا يتولى الحكم فيهـا فرعون قوي الشكيمة . فالضعف ينزل بالسلطان في مصر الفرعونية ، انما يعني ، في نظر المصريين الهوان فالفوضى تعم البلاد ، فالغزو من الخارج يقوم به الطامعون بخيراتها لا يلبثون ان يتزيوا بزي الفراعنة ، اجتذاباً لرعاياهم .

١ – الملك

الملك محور الوحدة وخالقها

يعزو المصريون الى ملكهم الاول مينس مؤسس الاسرة الاولى ، تنظيم البلاد على اساس توحيدهـا . فالملكية في نظرهم ، بدء تاريخ الانسان في البلاد . وقد جعلوا من نقطة الانطلاق هذه حدثاً الهياً دبرته الآلهـة وهيأت له الاسباب ، وسخرت في سبيل تحقيقه مينس وجعلت منه خلفاً مباشراً للارواح انصاف الآلهة الذين شدوا منه الازر . وقد وقع هذا الحدث التاريخي في نظرهم في الحين الذي برزت فيـه الاكتشافات البشرية الاولى التي تعد من اركان حضارة الانسان : كالكتابـة ، والفن واختراع فنون الزراعة والصناعة .

ويأبى علم الآثار التسليم بهذه الاحكام ، اذ لديه الدليل القاطع على المحاولات الاولى التي اخذ الانسان فيها يتلمس طريقه نحو التقدم والارتقاء ، كما عندها الدليل على المراحل التي مر بهـا بين صعود وهبوط وارتفاع ونزول استغرقت وقتاً طويلاً من الحضانة . كل هذا من شأنه ان يضفي اهمية خاصة على تحقيق الملكية بعد ان عرفت في البلاد ، ولادة صعبة ، بطيئة ، اذ كان عليهـا ان تتغلب تباعاً على النزعات المحلية الممثلة في الاربعين « حاكمية » وعلى الازدواجية او الثنائية التي قسمت مصر الى منطقتين متباينتين من الوجهة الطبيعية : الدلتا والوادي ، او مصر العليـا ومصر السفلى ، متعادلتين تقريباً بمواردهما المادية والبشرية .

والحقبة التي مرت على المملكتين تركت اثرها بارزاً في خطط المملكة الموحدة ، اذ عرفت البلاد مدة طويلة ادارتين مختلفتين ، وسلسلتين او دورتين من الالقاب المتوازية ، وبيتين للمـ ـال او خزينتين ، اقله من الوجهة الرسمية . وهذه المراسم التي لم يكن بدّ منهـــا في بادىء الامر لم تلبث ان زالت وتوارت بينما بقيت حيةً الرموز والشارات المميزة للملكية والتي كرستها التقاليد الخاصة بتكريس الملوك وتتويجهم. ولعل ابرز هذه الرموز طراً التاج الذي كان يتألف من تاجين مزدوجين ، اشارةً للملكتين اللتين اندمجتا وذابتا في مملكة واحدة ، يتوج بـــه الفراعنة في الحفلات الرسمية ، يعلوه تاج الجنوب الابيض المستدير الشكل من اعلاه ، مرتكزاً على قبعـــة الشمال الحمراء يعلوها من الوراء سيخ عمودين تزينه من الامام ريشة لولبية الشكل . ومن القاب الملك الكبرى : « رب التاجين » وهو لقب يولي صاحبه صفة خاصة اذ ان للتاجين صفة التأليه ، ولهما بالتالي المرتبـة الثانية بين مراتب المراسم والتشريفات . وتنتهي الى الذوبان والانصهار في الذات الملكية هذه الازدواجية الممثلة بهذه الانشوطة الملتفة حول عمود العرش وهي انشوطة تتألف من البردي ، وهو من منابت الغياض في الشمال ، ومن زهرة البشتـــين او اللوتس رمز الجنوب، ومن الشارة البارزة في التاج الملوكي والتي ترمز الى الشمال والجنوب معاً: النحلة والثعبان اللولبي الشكل من جهة ، والقصبة والنسر من جهة اخرى .

اختيار العاصمة منف وأثر ذلك

لا شك ان الملك مينس ، طلع من الجنوب ، من الصعيد ، اذ ان تاريخ مصر الرسمي يرجع السلالتين المصريتين الاولى والثانية ، الى مدينة قديمة من مدن الصعيد هي مدينة تنيس اتخذها ملوك الاسرتين المذكورتين عاصمـــة لملكهم ، فاستحقوا بذلك ان يوصفوا بالاسر الثانية . وقـــد وقع اختياره على نقطة تقع الى الجنوب من الدلتا ، على بعد يسير من الرقعة التي تقوم عليها مدينة القاهرة اليوم . في هـــذا المكان ، تأسست منذ السلالة الاولى ، قبل إنشاء مدينة منف التي برزت بعد ذلك بقليل ، قلعة تعرف « بالجدار الابيض » وهي بمثابة حصن منيع يتحكم بطريق الوادي ويهيمن عليه ، كما كان يشتمل على قصر ملوكي تقام فيه حفلات التتويج .

والمكان الذي وقع عليه الاختيار نزولاً عند المقتضيات الجغرافية والمحافظة على التوازن بين الشطرين الشمالي والجنوبي ، كان يستجيب تماماً لاهداف الملكية الاتحادية ومتطلباتهـــا التي طالما شبهوها مجازاً ببيضة القبان او ميزان المنطقتين . وقد قررت السلالة الثالثة نقـــل المقر الملكي الى هذا المكان وجعله بالتالي مركزاً للحكم والادارة العامة ، وعلى ذلـــك سارت الاسر الفرعونية التالية حتى الثامنة منها، ولهذا استحقت ان تلقب بالاسر « المنفية » نسبة الى منف ، بينما تعرف اسر الامبراطورية الوسطى والحديثة بالاسر « الطيبية » لان ملوكها الاول طلعوا من طيبة في مصر العليا او الصعيد ، وكان هؤلاء الملوك ابناء اله هذه المدينة « أمون » الاله الملكي الاعظم ، وهكذا اصبحت طيبة المدينة العاصمة . وبعد ذلك بكثير قامت سايس في الدلتا ، ثم الاسكندرية خارج الدلتا او على مقربة من مصر ، كما ورد وصفها في النصوص الرسمية .

وفي العصر اليوناني نفسه ، اي في القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد ، كانت مراسم التتويج لا تجري الا في مدينة منف ، وهو تقليد عُمِل به باستمرار لما كان يرمز اليه من اتحاد شطري البلاد في شخص الملك الواحد الوحيد .

الملك الاله

كان الملك في مصر ، منذ بدء الملكية فيها ، الهاً ، ولكن ليس بصورة رمزية او مجازية للتدليل على سلطته المطلقة وتساميه فوق العامة بل على عكس ذلك تماماً ، فالنص الحرفي انما ينم على هذه العقيده التي تكوّن احدى مميزات مصر الفرعونية . وهي عقيدة تطورت بالطبع على مر السنين والاجيال الا انها لم تفقد شيئاً من قوتها وفعاليتها .

فالملك هو قبل كل شيء « هوروس » الاله النسر او الاله الشمس ، ابن اوزريس . وتحت تأثير عبادة الاله رَعْ ، اله الشمس الاكبر في هليوبوليس بالقرب من مدينة منف ، مركز الثقل في الامبراطورية المصرية القديمة ، يصير هوروس تابعاً لرع ، والملك يصبح بالتالي : هوروس — رع او بالاحرى رع — هوروس ، ثم فيما بعد ابن رع . ولم تلبث هذه البنوّة ان رمز اليها منذ الباكر بصورة حسية ، ظهرت على اتمهـا وبابهة وحلال في عهد الامبراطورية الحديثة عندما اصبح امون طيبة الاله رع ، وذلك لاسباب ودوافع سلاليـة ، واستحال بالتالي الاله امون رع . وعوضاً من ان يكتفى بوصف هذا كله شفوياً اي بالكلام ، راح المصريون يرسمون هذا كله على جدران الهيا كل ، فيصورون الاتحاد الحسي بين امون والملكة كما راحوا يصورون حسياً العون يسديه الاله والآلهة التوابع للطفل عند ولادته وفي تربيته . وهي تقاليد بقيت حيةً ، قويةً ، ثابتة ثبات الحضارة الفرعونية نفسها .

ففرعون الاله في الحياة ، يبقى الهاً بعد الوفاه . فهو الاول بين المصريين وبالتالي يستحق مناسك العبادة والتكريم المتوجب للملك المتوفي باعتباره اوزريس ، اذ قام على الارض من يحل محل ابنه هوروس. فمن المنطق والطبيعي، والحالة هذه، ان يصبح اباه الالهي. والتعاليم الدينية التي سيطرت على هليوبوليس لم تغير شيئاً من طبيعـة الاعتقاد الذي لا يتفق ، حسب منطقنا ، مع العقيدة التي تجعل من الملك ابناً للاله رع ، الا ان الديانة المصرية لم تبالِ كثيراً بهـذه المتناقضات . ولما كان اوزريس ملك الاموات كان لا بد للفرعون الراحل ان يتّسم بهذه الصفة الملازمة للملكية. وهكذا حق لرعمسيس الثاني ان يخاطب اباه قائلاً : « انت في مسكن الراحة في الدار السفلى مع اوزريس ، بينما انا أتألق هنا امام الشعب بصحبة رع ، متربعاً على عرشي مثل هوروس » .

وهذا التأليه في الدارين ، الفانية والباقية ، ليس من نزوات ملك عاتٍ مستبد اوجب على رعاياه الخانعين الاخذ به . فهو ينبثق رأساً ويصدر عن الايمان الوطيد ، بانه اله واله عظيم دوماً على اتصال مباشر وثيق بالآلهة الكبار ، له القدرة على الطبيعة يصرّفها في الوجه الخـيّر النافع .

فالملك ، كما يقول احد الوزراء الذين عملوا في عهد الامبراطورية الحديثة ، « اله اعماله تساعده على الحياة » . أفليس له الفضل في إخصاب المواسم وازدهارها واقبالها ، لانه اله النيل ، مصدر كل ازدهار . واسمع ما يقوله هنا أحد الفراعنة المتوفين : « كنت ملكاً أؤمّن طلوع الشعير » . وعندما يعتلي فرعون العرش ، كان على الناس ان يفرحوا ويبتهجوا لأن أحد الارباب اقيم رئيساً على كل البلاد ... والمياه ترتفع ولا يهبط منسوبها ، والنيل المياه الخيرة المدرارة ... والحياة نهب بين ضحك ولهو » ففي الرقّم والكتابات المصرية ، يرافق اسم الملك شارات ترمز الى : « الحياة والصحة والقوة » ووجودها على هذا الشكل يُمن يرفع ليس للذات الملكية فحسب ، بل ويتجه ايضاً بواسطته لكل المملكة وما فيها من سكان . وحتى بعد الوفاة يبقى فرعون يحدب على مصر ويعطف عليها ، ولذا حق له اكثر من أي انسان آخر ، ان يخلد ذكره ويبقى حياً الى الأبد .

تعيين الملك وتتويجه

الملكية بمثل هذا المفهوم وعلى مثل هذا الشكل ، نظرية لا بد وان تترك ، من قريب او بعيد، اثرها العميق على كل ما يتصل بالملك وشؤونه . فهل قام في مصر ، بالفعل ، حق ملكي وراثي راسخ ثابت وطيد ؟ ليس من يستطيع إثبات ذلك ، ان كل الدلائل تشير الى ان الابن البكر كان يخلف اباه الملك ، ولكن هذا الأخير كان يعمد في بعض الأحيان ، الى تأمين خليفته بنفسه فيختاره او يشركه باعباء الحكم وهو في قيد الحياة فيحكم كوصي مشارك . غير ان تدابير كهذه من شأنها ان تجعل الملك يؤثر ابنه الاصغر او ابن احدى زوجاته الاخرى . ولذا فالوثائق الرسمية التي بلغت الينا من ذلك العهد لا تقتصر على التنويه بحق الولادة وحده . ففي حالات اغتصاب الملك والاستيلاء على العرش عنوة واقتداراً — وهي حالات كثيراً ما تكررت حوادثها علانية ولم يلطف من حدة وقوعها زواج المغتصب من احدى اميرات الاسرة السابقة — تسكت الوثائق التي لدينا عن تبرير مصير الملكية بقوة الحق او بالنجاح . فالكل ينسب هذه الامور لرغبة الآلهة ومشيئتهم ، وهو بالذات ما تفرضه تماماً نظرية البنوّة الالهية . ولا بد ان يكون حدث — وقد حدث ذلك بالفعل اكثر من مرة — في عهد الامبراطورية الحديثة التي بلغت فيها عظمة اله الطيبيين امون الاوج ، كما كان لنفوذ الكهنة اذ ذاك الشأن الكبير فكانت مداخلات الكهنة والسحرة والعرافين مثاراً للشك من حيث عدم تحيزهم .

وعلى كل ، فالملك لا يصبح بالفعل ملكاً الا بعد حفلة التتويج ، وهي حفلة تتم مراسمها في مدينة منف بسلسلة من الطقوس الرمزية والادعية التقليدية التي في اتيانها تذكير بتوحيد المملكتين او شطري البلاد في شخص الملك ، فيدخل بين مصاف الآلهة ويصبح مساوياً لهم . وخلال حفلة التتويج يسلم شارات الملك التي توليه القوة الالهية كالصولجان والسوط . وبعد ذلك « ينتصب » ناهضاً وعلى هامته تاج الجنوب الابيض وتاج الشمال الاحمر ثم البشنت (*Pschent*) ، الذي يجمع بينهما ، ويجلس على العرش فوق البردي واللوتس ويقوم بدورة حول « الجدار الابيض » ،

وهي حركة ترمز لتوليه امر الدفاع عن مصر ، اسوة بالشمس التي تقوم بدورة حول الارض .

وهكذا يحمل الملك الجديد الالقاب الرسمية الخمسة التي ينص على حملها مرسوم ملكي يعود صدوره لعهد الامبراطورية المتوسطة : هوروس رع ، ورع التاجين ، وهوروس الذهبي لحاكاة الذهب الشمس ، وبالتالي رع ، و « ملك القصبة والنحلة » رمزي مصر العليا ومصر السفلى ، وابن رع. وهكذا نرى رعمسيس الثاني يلقب بالاسماء التالية : ١ — الثور القوي المصفّح بالعدل ؛ ٢ — حامي مصر وصلة الوصل بين البلدان الاجنبية ؛ ٣ — المبتلىء سنين وفتوحات ؛ ٤ — المسربل بعدل رع والمصطفى من رع ؛ ٥ — حبيب امون ، رعمسيس . والتاريخ لم يُبقِ الا على هذا الاسم الذي اعطي له عند مولده . اما الاسماء والكنى الاخرى فلم يعرف بها الا بعد اعتلائه العرش ، اذ انه لا ينال الرابع منها الا في حفلة التتويج . وهكذا يتسربل فرعون صفة الملك الفائقة الطبيعية بصورة تأخذ الالباب وتدعو للرهبة والخشية لما لها من وقع في النفس .

حياة الملك

وتجري في عهد الملك حفلات من هذا النوع ، وذلك في الاعياد التذكارية وهي اعياد لها من المعنى والمدلول ما يتجاوز بكثير مفهوم الاعياد المألوفة . والغرض من هذه الاعياد تجديد الاعتبار الذي كان للملك من قبل والاعتراف بما له من سطوة دينية وقوة خارقة يتوقف عليها خصب مصر ورفاهية الوادي . بالطبع لم تكن هذه الاعياد الموسمية سوى العودة بالذكرى الى تلك التقاليد والعادات البربرية التي كثيراً ما كانت تنتهي بقتل الملك واستبداله بخلف له اوفر شباباً وصحة .

فحياته على مر الايام ، حياة اله وابن اله . هو موضوع عبادة الجميع وتكريمهم . الكل يعفّر جبينه امامه ويتشرف اسعدهم حظاً بتقبيل قدميه . حركاته وسكناته الرسمية تجري وفقاً لمراسم معينة فلا يظهر للناس الا برداء خاص مرصع بالجواهر والاحجار الكريمة ، وبلحية صغيرة مستعارة ، كذلك يقوم بمراسم خاصة من التطهير . ووجبات الاكل التي يتناولها هي بمثابة قرابين يقدمها للآلهة .

فهو يحب ويستطيب بالطبع كل ما يدخل البهجة الى قلبه ، شأنه في هذا كله شأن الآلهة . له اوقاته الخاصة للترفيه والتسلية ولا بأس اذا ما تحدث الناس عن هذه او تمثلوها . فاذا ما نهض للصيد والقنص قام بعمل مألوف متعارف لدى الملوك ، فيعطي الدليل على ما أوتي من قوة وصحة وبأس في صيد التماسيح وفرس البحر التي تألف الغياض والمستنقعات ، فيطهر البلاد من السباع والحيوانات التي تعيث فيها فساداً وتنزل الرعب والضرر في العباد . وهو الى هذا كله ، ومع هذا كله بحاجة الى مباهج اخرى تسرّي وتدخل الغبطة في النفس : كاللحم اللذيذ الوافر ، والطيوب ، والموسيقى والرقص والمصارعين ، والرفاق والاسرة ، التي تتألف من العديد من الزوجات والسراري ، يختار من بينهن ما احلولى له ملكة ، يستعيض عنها باخرى بعد حين . وقد افرد للحريم داراً يعج بالخدم والحشم والوصيفات . فلا عجب ان يقوم في مثل

هذا المحيط وهذه البيئة دسائس وتحاك الفتن وتنسج المؤامرات وتدور المناورات ، كما وقع ذلك مثلاً في عهد الاسرة الثامنة عشرة اي في اواخر عهـــد الملك تحوتمس الثاني ، وهي المغامرة التي كانت بطلها الملكة حتشبسوت التي حفظت لنا الوثائق الرسمية الكثير من اخبارها .

وظائف الملك : الدين

وبين المراسم الدينية التي يؤتى بها موعظة وعبرة ويحرص الملـــك على القيام بها بوصفه ملكاً للبلاد ، وظيفته الدينية التي كان يؤديهـا بكل امانة باعتباره ابن رع او ابن الاله امون . فهو يعرف اكثر من سواه كيف يعبر للآلهـــة ، عن شكر مصر ويستمطرها شآبيب النعمة ودوام البركات. فالواجب الديني هو اول الاعباء العائلية التي يضطلع بها ، والواجب الاول المفروض على الابن نحو ابيه ، وعلى الوريث نحو ذويـــه من اباعد واقارب . فهو الكاهن الاعظم الذي يرتب مصاف الكهنـــة ويقيم من بينهم نواباً له او مساعدين لهم في الخدمة الدينية التي لا بد من تأدية مراسمها المفروضة كل يوم من ايام السنة .

نادرة جداً في تاريخ مصر القديم المناسبات التي استحال الحكم فيها ثيوقراطية ، آلت فيها حقيقة الحكم والادارة الى طائفة الكهنة . نرى في بعض الاحيان بعض الكهان يلقنون الملك القرارات التي تحتم عليه اتخاذها ، الا انه كان دائماً حريصاً على التظاهر بان مـــا يصدر ليس سوى الالهامات والتجليات التي يوحي بها اليه ابوه الالهي ، وانه يأتي مـــا يأتي وفقاً لمشيئته . ومع ذلك عرفت مصر النظام الثيوقراطي البحت في اواخر عهد الامبراطورية الحديثة ، بُعَيد السلالة التاسعة عشرة ، سلالة رعمسيس الثاني ، اي مع سلالة كهنة امون العظام ، وهي المعروفة بالسلالة العشرين . كل هذا والملك يعرف جيداً كيف يحول دون التجاوز هنا على حقوقه . فهو باعتباره الكاهن الاعظم في حيـــاة البلاد الدينية ، يقوم بواجباته وبوظيفتـــه الدينية على الوجه الامثل .

فالقرابين تقدم باسمه في الهياكل كل يوم من ايام السنة . وهو الذي يصدر الاوامر والتعليمات ببناء ما يرغب في بنائه وترميم ما يجب ترميمه من هياكل ، ويؤمن لها الاصلاحات التي يستدعيه وضعها ، هذه الهياكل العظيمة او المدافن الملكية التي شادها السلف الصالح . والملك هو الذي يُسبل الوقوفات ويقطع الاعطيات للآلهة ولهياكلها ، ويسهر على تأمين ادارتها واستثمار مرافقها عن طريق الكهنة ، كما يحرص على الظهور امـــام الناس بالخشوع والتقوى والامتثال الوديع في التنفيذ .

ولا يتردد ، الى جانب ذلك ، بفعل كونه اوسع اطلاعاً من اي شخص آخر ، في ان يعزي لشخصه سلطان اللاهوتيين المعتقدي . واذا اكتفى في عهد الامبراطورية القديمـــة بتأييد تعاليم اللاهوت الشمسي المعمول بها في معبد رع في هليوبوليس ، فهو لا يهمـــل الاستفادة منها لمصلحته وخيره.. وفي عهد الامبراطوريتين الوسيطة والحديثة ، لا يمكن فصل النجاحات التي احرزتهـا عبادة امون عن الاهداف السياسية التي سعت وراءها الاسر الطيبية الاصل . واكثر من ذلك

فاننا نرى الفرعون اخناتون الذائع الصيت ، في الربع الثاني من القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، يستخدم ما له من سلطان وقوّة مادية للدفع بعبادة الاله اتون الى الامام . انهـــا لأزمة قصيرة ولا شك ولكنها اتصفت بعنف نادر وكان بمكنتها ان تؤدي الى نتائج راسخة لو قيّض لاخناتون ان يعيش طويلاً .

وظائف الملك : الحرب

الدفاع عن مصر والذود عن حياضها وصيانة استقلالها ، مهمة وطنية عليا يضطلع الملك نفسه بمسؤولياتها . فاذا ما انعمنا النظر مليـــاً في تاريخ مصر القديم ألفينا هذا الدور من المهمة الملقاة على كاهل الملك اقل بروزاً في مصر منه في معظم الممالك والدول القديمة التي قامت في بلدان واقطار كانت اكـــثر تعرضاً من وادي النيل لاطماع الغزاة والفاتحين الذين جاشت نفوسهم برغبة التوسع . كان وضع مصر الجغرافي مدعاةً من الوجهة السيكولوجية لطمأنينة لم يتوفر مثلها لغيرها من البلدان المجاورة . فقـــد توالى على الحكم في مصر عدد كبير من الملوك حكموا البلاد وعاشوا بدِعة هانئين لم يعرفوا الحرب ومتاعبها المقضّة . فالاشادة بحب السلام ، والاستمساك بعراه والتغني بنعمائه بعبارات ولهجة لا تنبو عن نزعات العصر الحديث ، كل ذلك من المميزات التي اتّسم بها الادب السياسي في مصر قديمـــاً . ومثل هذه النزعة تبدو واضحة بارزة في مجالات اخرى من الوضع الاجـــتماعي الذي سارت عليه البلاد .

وهنالك مع ذلك حد ادنى للاستسلام للدعة والطمأنينة لا يمكن لاية دولة تجاوزه او تخطيه جزافاً : فملك ايفتو لم يتغنّ بغير المثل التي تدغدغ خيال شاعر مجنح الخيال . اما الفرعون فعليه ان يسهر على مراقبة الصحارى المحدقة بمصر وعلى أمْن مسالكها ومداخلها ولا سيما ما افضى منها الى ثغور البحر الاحمر ومرافئه التي كانت ترفد البلاد بمحاصيل بلاد البونت . وكان عليه ان يضع دوماً نصب عينيه تحت اشرافه ومراقبته بلاد النوبة وشبه جزيرة سيناء وكلاهمـــا غني بالمعادن والخامات النادرة . فكل الدول والامبراطوريات التي قامت في مصر ، في الألفـــين الثالث والثاني قبل الميلاد حرصت على ان تبسط سيطرة تامة على سيناء وشيئاً من ذلـــك على النوبة ، فكان البَلدان ابداً من البُلدان التوابع لمصر . وكان على الفرعون ان يتصدّى اكـــثر فأكثر للغزاة الطامعين بمصر من آسيـــا عبر السويس . فمصر تأثرت ولا شك ولا تزال بكل الموجات البشرية التي يصل مدها الى سواحل آسيا الغربية وبالفتوحات التي تنهض لهـــا شعوب المنطقة .

فالغزو الذي قام به ملوك الرعاة (الهكسوس) في اعقاب الامبراطوريـــة الوسطى سجّل عهداً جديداً في تاريخ مصر كما احدث تغييراً ملحوظاً في القِيَم المثالية التي سيطرت على مصر الفرعونية . فقد ترتب على ملوك السلالة الثامنة عشرة ان يطردوا الاجنبي المغتصب من البلاد وان يطاردوه الى ما وراء الحدود الشرقية ويجدّوا في إثره حتى مشارف الفرات ، محاولين ان يجعلوا من المنطقة الواقعة شرقاً بين مصر وبلاد ما بين النهرين درعاً واقياً لهم . ولذا اخذت

الامبراطورية الحديثة تحاول بسط سيطرتها المباشرة على فلسطين وسوريا ووضعها تحت حمايتها المباشرة ، حتى ان ملوك ما بين النهرين اصبحوا في فترة معينة من التوابع لهـــا . وعلى كل ، فهذه صفحة جديدة في تاريخ مصر . فبعد ان كانت البلاد ، من قبل ، في شبه عزلة ، نراها في هذه الحقبة تقوم بدور نشيط وحاكم في مصير الشرق الادنى ، سياسياً حيناً ، وحربيـــاً او عسكرياً في اكثر الاحيان . وكان من بعض نتائج هذا الوضع الطبيعية ان فراعنة ذلك العهد ، برزوا ، شاؤوا ام ابوا ، قادة حرب مجربين بالرغم من النفور او الكره الذي بدا على بعضهم في هذا المجال ، مثل امنوفيس الرابع . فشخصية تحوتمس الثالث ورعمسيس الثاني الحربية تكشف من حولهم من فراعنـــة ذلك العهد ، من جراء الفتوحات العريضة والانتصارات المبينـة التي حققاهـــا ، هذا في مجدو وذاك في قدش ، كما تشهد بذلك مرويات تحوتمس وقصيدة بنتاوار . وهذه النصوص الخالدة التي طبقت شهرتها الآفاق تعيد الى الذاكرة نصوصاً اخرى من عهد ملوك السلالتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة ، تنبض بالنزعات ذاتها . من الطبيعي ان تنسب الوثائق الفضل في هذا النجاح يصيبه الجيش المصري ، لعناية الآلهة ورضاها ، الا انها تشدد هذه المرة وباعتداد ظاهر ، على صفات هؤلاء الملوك الحربية والنبوغ العسكري الذي تحلوا به . فنحن امام مفهوم جديد للقيم يطبع ذهنية الفراعنة ، كان من قبـــل في المرتبة الثانوية ، واذا به اليوم يبرز الى الصف الاول .

فإقبال الملك على الالعاب الرياضية العنيفة والاستسلام لها بشدة يوليه قوة بدنية لا بد منهـا لتحمل الاعباء الحربية . فهو يظهر الآن اكثر منه في الماضي ، يصطاد الفيل على ضفاف الفرات كما يصطاد فرس البحر والتمساح ووحيد القرن بين غياض النيل ، ويطارد الاسد في الصحارى . والناس يتندّرون بقوته السحرية ويتفاكهون بأحاديث مهارتـــه الفنية وبقدرته على وتر أشد الأقواس بعد ان يرتد عنها الآخرون خاسئين ، ويسمرون حول مهارته في تسيير دفـــة السفن وترويض الخيل الجفول وغير ذلك من ألعاب الفروسية التي حرص المؤرخون على تسجيل وقائعها في الكتابات التي خلفوها والرقم المنقوشة .

ومع ذلك ينقص هؤلاء الملوك شيء لم يتمّ لهم ولم يتوفر فيهم ، هو انقطاعهم لمهنـــة السلاح والاهتمام بالامور العسكرية كخبراء مجربين وقادة محنكين ، فليس ثمّة من استعراض للجيش او تفقد سلاح يقوم به الملك ، ولا من تمارين ومناورات عسكرية خلال ايام السلم ، فاذا ما ارتفعت الحرب وخيّم السلام على البلاد ، تنوسي امر الجيش . فالمصري نفر دوماً من الحياة العسكرية ، فلا يتقبل الفكرة ولا يقبل عليها باختياره . واذا لم يسقط رجال الحرب من الفراعنة ، مكافـأة الشجعان وتقدير البطولة والبسالة ، فانهم لم يستطيعوا مـــع ذلك ان يحدثوا أي تغيير في عقلية رعاياهم . ولذا فهم يحاولون باصرار واستمرار لها مغزاهـــا البعيد ان يتفادوا الصعوبات التي يصادفونها في اوقات التعبئة العسكرية واعلان النفير العام ، وذلك عن طريق استخدام جيش من المرتزقـــة كالليبيين والنوبيين وأجناس شتى من الاسيويين ، وغير ذلك من شذاذ الآفاق ،

واخيراً الاغريق . وكم عـــاد عليهم الاتكال على الاجنبي في الذود عن حياض الوطن بالمحاذير والمفاجآت المقضة أقلها اغتصاب السلطان على أيدي رؤساء مصريين . فكم آل الحكم في مصر الى سلالات ليبية ونوبية حتى الى اليونان انفسهم مع ما عرفوا به من نفرة وأنفة من تمثل للحضارة المصرية ، فكثيراً ما زرعوا الاضطرابات الدامية في الداخل ، في عهد الدولة ..

من الصعب ، وأيم الحق ، حقن شعب بالروح العسكرية وتحبيب هذه الروح اليه . الا انه كان في مقدور هؤلاء الملوك لو اعتصموا بالصبر واستخدموا الاساليب والطرق الموصوفة ان يثيروا في الشعب المصري اكثر من هبّات عابرة واستشاطة آنية .

وظائف الملك :
استتباب النظام واشاعة العدل

واخيراً كان على فرعون ان يؤمن لبلاده ادارة رشيدة ولشعبه العدل بالسوية . فسلطته لا حد لهـــا وليس لارادته مبدئياً من وازع او حسيب . فالكلمات التي ينبس بها « موحيات » تخرج من فم اله . وهذا الاله يبرىء ويبدع ويخلق : « فكل ما يتفوه به صاحب الجلالة يجب ان يتم وان يتحقق بالحال » . فمشيئة الملك وارادته هي القانون ولهـــا ما للعقيدة الدينية من قوة وشكيمة . « فهو يعمـــل ما يحب ، ولا يأتي قط ما يكره او يبغض » . هذه النصوص التي نستشهد بها هنـا تعود بجرفها الى الامبراطورية الفرعونية القديمة ، اي الى عهـد بناة الاهرام . وهذا الشمول المطلق الذي تتضمنه لم تفقده الاجيال المتعاقبة شيئاً من قوته ومدلوله . واقواله لها من الحتمية بحيث لايسع المصري الا التسليم والخضوع لاوامر ونواه مهما بدت له قاسية لا تحتمل او بغيضة لا تطاق. فبعد ان أعرب الحكيم المصري إيبور عن اسفه للفوضى التي ضربت اطنابها في مصر ، خلال الحقبة الواقعة بين الامبراطورية القديمة والامبراطورية الوسطى ، راح يكاشف الملك دونما خوف او وجل او تردد قائلاً : « ان ما تشهده البلاد بعض نتائج الاضطراب الذي زرعته يداك في طول البلاد وعرضها وسط السّجس والجلبة. ولذا ترى النـــاس يلجأون للعنف بعضهم ضد البعض الآخـــر » . ثم لا يلبث ان يضيف قائلاً : « ان الشعب يمتثل لأوامرك » . فالدعوة للثورة على الملك ، للانتفاض على الحكم لم ترتدِ يوماً رداء العقيدة. وسلطة الملك، حتى ولو اصبحت مدعاة للضرر والأذى، تحافظ على طابعها الالهي .

ولكن إيبور هذا يحتكم من الملك الواهم الى الملك الحسن الاطلاع . فقـــد كان مفهوماً من الاساس ومقبولاً لدى الجميع ان الارادة الملكية لا يمكن ان تهدف الا لسعادة مصر . وبعبارة اخرى فالتفاؤل الذي تجيش به النفس المصرية والتسليم للمقدّر انما يعني في نظر المصري التسليم لمشيئة الآلهة الخيرة والنزول عند رغبتها ومشيتها . كذلك من الأمور البديهية عنـده ان ارادة الملك وقضاءه احكام لا يمكن ان تأتي كيفية ، اعتباطية ، هنالك تجريدات الهية تجعل من هذا كله اشبه باليقين. وبما ان « هو *Hou*» هو القوة المبدعة ، فالاحكام التي تصدر عنه والرغائب التي تتجلى فيه ، هي « سيا » اي تفهم . وما « مآت » الا « عدل» و« حق » .

وعلى هذا المبدأ فنظام الحكم المطلق في مصر الفرعونية يتكشف عن الوان من التقييم بدت وتجلت على وجهها الصحيح منذ نهاية الالف الثالث قبل الميلاد. وقد برزت بوضوح وجلاء في عهد السلالة الثانية عشرة ، اي في عهد الامبراطورية الوسطى. وبقيت منذ ذلك الحين مسيطرة على النفوس، مستبدة بالاذهان حتى زوال السيطرة المصرية الوطنية. وتستمر هذه السمات على صفائها واستقرارها حتى في مثل هذه الحال ، لتنتقل كاملة غير منقوصة الى النظرية الملكية التي حملها معهم الفاتحون الفرس وعملوا بها لينقلوها الى الاسرة الملكية اليونانية التي آل اليها الحكم بعد دوال الدولة الفارسية، بحيث ان البطالسة، هؤلاء المقدونيين الذين تربعوا على دست الملك في وادي النيل، لا يتحرجون ولا يجدون كبير عناء باستعمال التعابير والالقاب الرسمية نفسها التي عمل بها الفراعنة من قبل واستعمال الشعائر التي عمل بها وعلمها هؤلاء الفراعنة انفسهم حقبة تزيد على الفي سنة . وليس من البخس واوضع امجاد الحضارة المصرية القديمة ان تكون استطاعت — ان لم تكن الوحيدة والاولى بين الحضارات التاريخية القديمة ، وبمعزل عن كل تأثير اجنبي — ان تحد وتلطف من طغيان السلطة المطلقة في نظام ملكي الهي .

وبالفعل فمفهوم الملكية المؤلهة المثالي الذي يقول بـ : « مآت » تفرض نفسها بنفسها على الملك بشكل لا يرد وبقوة لا تقاوم . هنالك نصوص صريحة ، بغاية الأهمية تطلعنا على « ارشادات » ملك لابنه ، وعلى « تعليمات » ملك لوزيره ، وهي نصوص وارشادات تتفق نصاً وحرفاً ، يكفي الواحد منها لاعطائنا فكرة عامة : « ترغب الالهة في ان يحق الحق وهي تكره اشد ما تكره ، الاخذ بالوجوه والتحيز » هنا كل الناموس . هنالك قصة شعبية تضع على شفاه فلاح فصيح اللسان ، حسن الكلام ، يتقن القول ويجيد الكلمة البليغة بحضرة صاحب الجلالة ، فيمطره بوابل من الالتماسات والتوسلات ترفع عنه في نهاية الأمر الحيف النازل به ، وتزيل اسباب الشكوى التي آذته وآلمته . « يا مولاي ! إقطع دابر اللصوصية وارحم البائسين واحم المساكين ، ولا تكن إعصاراً يطيح بمن جاءك يشتكي ظلامته ... إجر عدل ملك العدل ، واسلك عدالة العدل ... واعمل بحسب القول المأثور الذي خرج من فم رع نفسه ... قل الحق ، وأت العدل ، فالعدل قوة ، والحق شيء عظيم ، فكلاهما راسخ رسوخ الجبال الشوامخ ... شكوت امري اليك ، فلم تصغ الى طلبتي وصممت اذنك عن شكواي ، ولذا فاني ارفع امري منك الى اله الأموات ... يا لها من حرارة ومن جسارة في صاحب هذه القصة الذي انما اراد ان ينفذ منها الى اثارة الابتسامة ولكن اعديدة هي هذه المماليك التي اتيح للروح الساخرة فيها ان تتفوه امام العزة او الجلالة المؤلهة ، بمثل هذه الألفاظ ، وان تتفحر بمثل هذه الاقوال حول موضوعات من هذا الشكل ومن هذا الوزن ؟

هذه التعاليم التي عمل بها والضرورة الملحة بضبط ادارة بلاد شاسعة كمصر ، كل هذا جعل من فرعون مشترعاً . كانت الحياة في مصر تفرض وضع مثل هذه القواعد الاساسية التي تضبط السلوك البشري ، الى جانب القضاء الملكي الذي كان عليه ان يفتي ويقضي في امور كثيرة

تعرض له . وهذه القواعد المكتوبة المرعية الجانب لم تكن شيئاً غير المبادىء التي خطها ملوك مصر من قبل ونهج القوم عليها من بعد . فمصر القديمة عرفت ولا شك ، الى جانب الاعراف المحلية او الاقليمية المعمول بها ، مجاميع من الشرائع والقوانين سنها نظام ملكي مركزي . ولكننا لم نجد بينها للآن ما يشبه ، من قريب او بعيد ، الدساتير التي عثر عليها في ما بين النهرين . نحن هنا امام تقاليد ومراسم حفظها لنا مؤرخو اليونان . فديودوروس الصقلي الذي استقى معلوماته عن مصر ، من مؤرخ مصري عاش في مطلع القرن الثالث قبل الميلاد ، هو اكثر الرواة والمؤرخين سرداً للتفاصيل المسهبة . فهو يسمي لنا قبل الفتح الفارسي لمصر ، خمسة فراعنة ويقدمهم لنا بكونهم « مشترعي مصر » بينهم مشترع واحد استرسل بذكر اخباره هو الفرعون بوخوروس الذي ملك على مصر في اواخر القرن الثامن قبل المسيح ، واليه يعود الفضل في مد البلاد بدستور ينظم الحياة التجارية فيها . الا ان فقر مصادرنا حول هذه الناحية من نشاط الفراعنة يجعلنا نجهل الكثير من معالم الحضارة المصرية .

ومهما يكن من الامر ، فالملك ، في مصر ، هو المرجع الاعلى والموئل الارفع . اليه وحده يرفع طلب الاسترحام الذي لا يُحْرَم منه اي من رعايا فرعون ، مهما اتضع قدره وانحط شأنه ، وبذلك يتاح له مراقبة اعمال عماله المتصرفين بشؤون مملكته الشاسعة ، والضرب بشدة على ايدي العابثين منهم بأمورها او الخارجين على ارادته .

٢ — الحكومة والادارة

اذا لم تعوزنا المصادر المتعلقة بالناحية الادارية من تاريخ مصر الفرعونية فلا بد مع ذلك من ان نبين نوع وطبيعة هذه المراجع لنوضح حدودها . نحن نفتقر لنصوص القوانين والمراسيم والوثائق الميدانية ، أي تنقصنا الاضبارات الادارية نفسها التي تتألف من اوراق أصلية تتصل مباشرة بعمل الجهاز الاداري الحكومي . في بلاد ما بين النهرين الوثائق عديدة كثيرة تتيح لنا شيئاً من المراقبة المتبادلة والمعارضة . اما في مصر ، ولا سيما في عهودها اليونانية والرومانية المتأخرة ، فلدينا مجموعات ضخمة من البرديات والفخاريات ، بينها بعض المراسيم العامة والكثير من الرسائل والتقارير والبيانات ، والعرائض والكشوف المالية المتعددة الوجوه . اما بشأن الازمنة التاريخية المتقدمة فعلينا ان نعول على مصادر من الصنف المتدني باستثناء بعض فترات تاريخية خاصة تتوفر لها بعض البرديات النادرة . فنحن على الغالب تارة امام نصوص رسمية تحمل الثناء الكثير على الملك وتفيض بذكره ومدحه وحمده ، وطوراً امام كتابات مدفنية تسرد لنا على جانب من المديح والثناء سيرة الملك المتوفى ، وحيناً أمام نصوص ذات طابع خرافي اسطوري ، وطلبات وتضرعات تقوية او غير ذلك من المرويات . كل هذه الوثائق تحمل طابع الصنعة والاصطناع وبالتالي التحريف للحقيقة والواقع . ولذا يرى الناقد نفسه ، في كل

لحظة ، وجهاً لوجه امام صعوبات كأداء ليس من السهل تذليلهـــا ، فتختفي وراءها تفاصيل ومعلومات ثمينة تتخذ مادة في ايضاح رأي أو دليلاً على نظر .

الصفات العامة

كثيرة هي الانطباعات التي لها ما يؤيدها او تنهض على أساس ثابت . فازدهار مصر واستثمار خيراتها ومواردها الطائلة ، كل هذا وما اليه يفرض قيـام ادارة رشيدة ، نظيمة قادرة على ان تؤمن وسائل التبليغ والتنفيذ ، والأخذ بما رسمه سيد البـــلاد الوحيد الاوحد. فالمركزية في الادارة هي من هذه السمات الأساسية المفردة للحضارة الفرعونية. فكل تراخٍ او توانٍ او ضعف ينتابها يفضي في الحـــال الى بعض ما تفضي اليه الفوضى : الى البؤس والى ما هو أدهى وانكى منه ، الى الرعب ، والقلق والاضطراب العام ينزل بالبـلاد ويشل منها أسباب الحيـــاة . هذه حقيقة أساسية راسخة من حقائق التاريخ المصري القديم تؤيدهـا التجربة المريرة والاختبارات المتكررة . فهي توضح لنا حاجة البلاد والناس فيهـــا للنظام ، للاطار الاداري المستحكم ، للسلطة القوية ، إذ طالما شعر الناس بمثل هذه الحاجـــة وشعروا بوطأتها . وهذا ما يفسر لنا جيداً روح الخضوع والامتثال التي ميزت الشعب المصري . فالفكرة الدينية ، مهما بلغ من قوتها وشدة تأثيرها لم تكن لتستطيع وحدهـــا ان تضفي على النفس المصرية مثل هذه المشاعر والاحاسيس التي جاشت بها هذه النفس طيـــلة آلاف السنين ، وهي مشاعر وأحاسيس كثيراً ما اتخذ منها الفراعنة يـــداً لكبت البدوات الفطرية والنوازع الامارة بالسوء ، ولكبت ما تحرّق اليه الارباب من الاستئثار بالسلطان ، والحدّ من الدعوات الاقليمية والمحاولات التي قامت بها فئات نزعت لشيء من الاستقلال الاداري . فقـد استطاعوا مراراً كثيرة ان يقيموا لهم في البلاد نظاماً اداريا كادوا يبلغون به التام لم يكن يضاهيـــه ، في التاريخ القديم ، غير النظام الذي اقامه فيها خلفاؤهم من بعدهم ، ملوك الدولة اليونانية . وليس من باب المصادفة قط ان تبلغ مصر في هذه العهود التي تم لها فيها مثل هذه النجاحات الباهرة ، سدرة المنتهى في الحضارة التي صاغتها وانشأتها .

فأمام هذه المشاهد يرغب المرء ويتمنى لو يحدد بشيء من اليقين ، المبـــدأ الاساسي الركين الذي نهضت عليه الادارة في مصر الفرعونية وكان عمادها الاكبر . أكانت مصر إذ ذاك ، ملكاً خاصاً لسيدها وربها الفرعون ، يستثمرها كما يستثمر عقاراً خاصاً به ، او انهـــا كانت تؤلف مملكة — او بالاحرى مملكتين هما مصر السفلى ومصر العليا — انيطت به مسؤولية ادارتهـــا ؟ ليس ما ينفي في الواقع ، قيام الفكرتين معاً كما انه ليس هنالك دليل على ان الخواطر خامرها ادنى شك بوجود اي تضاد او تنافر بين الفكرتـــين . كإله وابن إله ، الفرعون هو رب ارض مصر وسيد من عليها وما عليها . فلم نر قط اي اثر للتمييز ، ولو فكرياً، بين تملك خاص او تملك تابع للتاج وبين دولة قائمة بذاتها تتألف من رقعة جغرافية قائمة بحدودها المميزة ولها مجتمعهـــا الواحد . والدليل البسيط الى ذلك هو ان الناظر او القيّم العام للادارة المالية في البلاد ، كان من ضمن مسؤولياته ومن واجباته الاولى ان يؤمن حاجات البلاط . ومع ذلـــك ، فقد رأينا

كيف ان هنالك واجباً ادبياً على الملك ، هو واجب اشتد التحسس به على مر السنين . وقد ادت فكرة هذا الواجب بصورة لاشعورية ، الى فكرة دولة مستقلة ، متميزة عن شخصية رجل فرد ، ولو كان الهاً وابن اله . وعندما كان فرعون يتكلم عن : « وظيفته العظمى » — وقد أتى ذلك على لسانه اكثر من مرة — كان كلامه هذا تعبيراً عن فكرة لا تزال غامضة طي الضمير ، غير مستوفاة التحليل والتركيز ، لم يكن الناس ليتبينوا جيداً نتائجها ومستلزماتها النظرية إذ انهم لم يروا فيها تضاداً مع فكرة التملك ، ولم يستخلصوا منها النتائج العملية .

الحكومة المركزية

فالفكرتان مع ذلك تلتقيان من حيث ان كل شيء في مصر الفرعونية يتوقف على الملك وعلى الملك وحده . هذه هي القاعدة الذهبية التي قام عليها تاريخ مصر قديماً .

فقصر الملك « الصرح الكبير » ، **پر عا** ، ومن هذه اللفظة المصرية نحت اليونان كلمة فرعون ، هو مجمّع الادارة المركزية التي يرجع اليها حتماً كل شيء . فالملك يتولى امرها ويقبل عليها يتدبر شؤونها منذ الصباح بعد قيامه بالمراسم الدينية ، ويتحرّى كل امر ويتقصّى كل شيء ، ويطّلع على الرسائل والمعاملات الواردة والتقارير ، ويستقبل اصحاب الاعمال ويشرف على ديوان المظالم ، ويسترشد بآراء ذوي الخبرة ويتخذ في نهاية المطاف الرأي ، ويصدر الاوامر والتعليمات التي يقتضيها الوضع ، فتُبلَّغ باسرع ما يمكن بعد ان تُفرغ بصيغة المتكلم .

والى جانب الملك يقوم وزراؤه او معاونوه وهم اشبه برؤساء دواوين عليهم تبليغ الاوامر وتنفيذها . وكثيراً ما تشير النصوص الرسمية اليهم فتصفهم طوراً بـ « فم الملك »، و« لسان الملك » ، وطوراً « بعينيه » او « اذنيه » ، يعينهم ويعزلهم كيفما يشاء . وبينهم من يلعب دوراً رئيسياً هو الوزير «ثاني» ، موضع ثقة الملك ، يلقنه تعليماته وتوجيهاته والارشادات العامة وكيفية مباشرة السلطة والقيام باعباء الادارة . فاختصاصات البلاط الملكي الواسعة وما اليه من مهام واعمال وعمال ، كل هذا يأتي على نسبة تفهم الفرعون لمقتضيات « الوظيفة العظمى » . وهذا الاهتمام يختلف كماً ونوعاً باختلاف شخصية الجالس سعيداً على اريكة العرش الذي يبرز لنا دوماً من خلال لغة الدواوين والتعابير الرسمية المكرّسة . فصورة الفرعون الادبية والسياسية تتباين تباين صورته المادية او الطبيعية .

ففي عهد الاسرة التاسعة عشرة ، نرى الوزير يرأس احياناً مجلساً أعلى له ، من الوجهة الادارية على الاقل ، صلاحيات واسعة . الا انه ليس ما يدل على ان القضاء ، تمتع في مصر القديمة ، من الوجهة الادارية على الاقل ، بشيء من الاستقلال وتميز بذلك عن الادارة وانفصل عنها . وهذا المجلس ، هل كان وحيداً في البلاد ؟ وما كانت وظيفته والعمل الذي يقوم به ؟ وممن يتألف وعلامَ يقوم ؟ كلها اسئلة مغلقة تبقى دون جواب . وقد حلا لبعض المؤرخين ان يروا فيه هيئة وطنية ضمت عدداً من اعيان البلاد واشرافها، نجهل كل شيء عن طريقة اختيارهم

وتعيينهم ، وهو رأي فيه الكثير من الجرأة ومن الحطل . والافصل ان نرى في هـذا المجلس اشبه بلجنة من كبار الموظفين واصحاب المقامات العالية والنبلاء ليس إلا ، وهم كثر في القصر يؤلفون بطانة الملك ويحملون ألواناً من الالقاب الشرفية او الادارية . في الامكان اعداد قائمة طويلة من هذه الرتب والالقاب ، ليس فيها من طائل او كبير منفعة ، إذ يبقى علينا ان نعرف من جهة ، ما اذا كانت الالقاب التي يحملونها بالفعل هي وظائف عملية يقومون بها ، كما يجب علينا من جهة أخرى ان نتساءل ما اذا لم يكن في البلاط قائمة رديف للاولى . فقد كان في عهد الامبراطورية القديمة في مصر ، احد عشر « رئيساً للاسرار » كلهم من رتبة واحدة تتميز الواحدة عن الاخرى بنعت او وصف يضاف الى حاملها فيفرّده عن سواه . وهكذا نرى في البلاط عالماً من الموظفين يتوزعون على سلم من الرتب والدرجات لا نعرف عنها في اكثر الاحيان ما يشفي الغليل ، كلهم يعيش في « الصرح العظيم » ويعمل في دوائره واقسامه ودواوينه . رؤساء ورش ومأمورو مخازن ، ورؤساء عنابر ، وقهرمان على خزينة الدولة ، تحت امرتهم جيش لجب من المآمير والكتاب والمحاسبين والحراس والعبيد ، هم على الغالب اسرى حرب وغزو .

الادارة الاقليمية والمحلية

ومهما بلغت هذه الادارة المركزية من كمال التنظيم المحكم ، كان لا بد ان تتراخى عراها وتلين حلقاتها امام المسافات الشاسعة التي كان يترتب اجتيازها باسرع ما يمكن على قلة وسائل النقل وضعفها ، إذ كان فيضان النيل السنوي الرتيب يحول دون انشاء وبناء طرقات جيدة تربط اقاصي البلاد بدوانيها ، كما ان الحصان الذي دخل استعماله متأخراً في البلاد ، بقي وقفاً على الاغنياء والاثرياء . ولذا كان جل اعتماد الادارة على السعاة المشاة او على التنقل في النيل بواسطة المراكب الشراعية ، وما الى النيل من شبكة الاقنية والترع . فكان على العامل ، والحالة هذه ان يقطع بالامور ويبتّ بالقضايا العارضة باتخاذ قرار محلي ، بالرغم مما يستهدف له ، اذا ما اشتطّ عن الصراط وخرج عن الصدد ، من تعنيف وتكدير ورجوع عما اتخذ من قرارات او اصدر من تعليمات .

وفي بعض عهود مصر الفرعونية يزدوج مركز الوزير ويتضاعف ، اذ يقوم واحد في منف وآخر في طيبة ، وفي هذه الثنائية ، تذكير بالمملكتين الموحدتين معاً في شخص الفرعون . وقد قام احياناً ، لا سيما في عهد الامبراطورية الحديثة حاكم خاص في النوبة ، عرف عندهم بـ « نائب ملك » . وكان حكام الولايات يتمتعون ولا شك بصلاحيات ادارية واسعة .

كانت الوحدة الادارية المحافظة او المديرية ، قسمت البلاد الى اربعين منها ، وهو تقسيم حافظت عليه البلاد ، كما حافظت على حدودها المرسومة . وكانت المحافظة تتألف من دائرة جغرافية لها تنظيمها الاقتصادي والديموغرافي ، لها حاضرتها او قاعدتها الادارية ، وهي على الغالب قرية كبيرة اطلقوا عليها في عهد حكم اليونان في مصر اسم : « متروبول » . وفي بعض عهود مصر الفرعونية ، ولا سيما في عهد الامبراطورية المصرية الوسطى التي اقامت في البلاد شبكة

ادارية محكمة الحلقات ، نرى المحافظـــة ، او بالاحرى ، جميع المحافظات ، تقسم اداريا الى أقضية : واحد في الشمال وآخر في الجنوب ، ويأتي في اسفل السلم ، القرية التي تمثـــل الوحدة الاساسية ، اذ كانت مصر تجهل المجتمعات السكنية المتفرقة من حراء فيضانات النيل فكانت المساكن تتجمع فوق مرتفعات الارض من رواب وتلال .

وعلى كل مستوى من هذه المستويات الادارية ، كان يقوم موظف اداري يمثل الفرعون في الناحيـــة او المنطقة ، اختلفت رتبته وسلطته وطريقة تعيينه باختلاف العصور والازمنة والعهود التي تعاقبت على تاريخ مصر القديم . ففي العهود التي اخذ الحكم بأشد انواع المركزية ، كان يتولى الأمر في القرية العمدة الذي يعين من وجوه سكانهـــا . وكان لكل قضاء « مجالسه » ، مقصور بعضها على الفلاحين والصناع والكهنة ، وهي مجالس تقوم بوظائف قضائية ومالية ومدنية . من الصعب على المرء ، ان لم نقل من المستحيل عليه ان يستطيع تحديد مدى صلاحيات هذه المجالس ، ومدى ما كانت تتمتع به من استقلال اداري تجاه الحكام الذين كانوا يعينونهـا . ومهما يكن من الامر فقد كان عدد الموظفين كبيراً وكبيراً جداً . بعضهم يعمل بصورة دائمـة في الديوان والآخرون يمرون عليه غباً بين سعاة بريد ومفتشي ادارة ، ومراقبين ، تأميناً للصلة بين البلاط والادارات في الملحقات . والمفهوم ان هذا العدد العديد من الموظفين والاعمـال التي يعهد اليهم القيام بها كان من شأنه ان يجعل واهياً او صورياً اي استقلال اداري ، اعترف بـه يوماً من الايام لأي من هذه الهيئات الاقليمية او المحلية .

وهكذا نرى ان الموظف الرسمي في مصر القديمة ، تمتع دوماً بسلطة ونفوذ عظيمين ، كثيراً ما تجاوز حدود وظيفته ، فاتسع امامه مجال التمادي في العبث والتجوز . والموظف النموذجي هو « الكاتب » . وهو على الغالب رجل عليم ، ثقيف ، مفتنّ بامور الكتابة والخط والقراءة . على صعوبة الكتابة وقراءتها إذ ذاك . فاستطاع مع الزمن بما اوتي من ذكاء وعلم ومراس وخبرة ان يرقى درجات السلم الاداري فتنفتح امامـه ابواب الوظائف العالية . وسنرى بعد قليـــل صورة للكاتب وللشأن الذي يمثل ، في حديثنا عن الوضع الاجتماعي في البلاد ، اذ يمثل فيه دوراً بارزاً بفضل الوظيفة الادارية التي يقوم بها والتي كانت توليـه سلطة مطلقة فتجعل منه ممثـــلاً للسلطة المركزية .

الادارة والحياة المادية في مصر

اما الغاية لهذه الادارة والغرض الذي تسعى اليه فتأمين خدمة آلهة مصر على الوجـه الاكمل حتى اذا ما تم لها الرضى احالته رفاهاً وازدهاراً على البلاد واهلها . ويجب الملاحظة هنا ان النظام الديني وجه متصل من وجوه الادارة المدنية . فالملك الاله هو سيد الامرين ورب الاثنين ، يرعى الاول تأميناً لخير الثاني ، ولا يرضى قط ان يجعل منهما ميدانين مختلفين يؤمن مصالحهما اشخاص مختلفون هم من الدرجات العليا سواء ينتقل الواحد منهم ، من هذه الى تلك ، دونما تحرج . فالوظائف الكبرى في كلا السلكين تتناوب وتتبادل على السواء .

ويستتبع هذا من الوجهة المثالية، ان الملك الاله، يوجّه عن طريق الادارة، حياة مصر برمتها ويسيّرها في جميع مظاهرها ومعالمهـــا ، وان دور الاهلين فيها يقتصر على تنفيـذ الاوامر والتعليمات التي يبلغونها حتى ما وقع منها ضمن حياتهم الخاصة . وهذه المثالية الصورية تقتضي بأن يكون الملك ليس رب البلاد ومالكها الأعلى فحسب ، بل السيد المطلق الفعلي للأرض وما عليها ، ولما اليها من صنائع وفنون ومقتنيات ، ولما يدب عليها من حيوان وانسان .

وكم نرى هذه المثالية الصورية تصطدم عمليـــاً بالواقع المرير . فباستثناء ارمات الفوضى والاضطرابات التي صحبت تاريخ كل امة ولازمت كل حضارة، كان على الملكية ان تحسب حساباً لماجريات الحياة وللاختبارات الواقعية . كان عليهـا ان تحسب حساب النزعات الى الاستقلال الاقتصادي اكثر منـه الى الحرية الفردية ، وان شئت فقل التوق الى التملك والكسب الشخصي . ومثـل هذه النوازع تجلت في مصر كما تجلت في أي بلد آخر الا انهـا هيمنت عليها في مصر مشاعر أقوى حدّت من سورتها وكبتت من شكيمتها .

وبالفعل نرى السلطة الملكية في مصر ، تبلغ الذروة في عهد الامبراطورية القديمـة ، أي في عهد الاسرتين الرابعة والخامسة ، اذ كانت رغبة الملك وارادته هي القاعدة التي يؤتمّ بها ويعمل بها ، وهي ارادة يفرضها على اناس هم عبيد اكثر منهم رعايا . وفي عهد الامبراطورية الوسطى ، استطاعت الاسرة الثامنة عشرة أن تعيد الى البلاد الهيبة التي كانت للسلطة من قبـل ، كما استطاعت ان تقيم لها نظاماً ادارياً غاية في الدقة ، وذلك تحت ستار من مثاليـة العدالة أقصرت الملكية نفسها عليها وائتمت بها. ولم يستطع ملوك الامبراطورية الحديثة من الاسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة ان يحققوا شيئاً من هذا أو شبيهـاً به . الا ان هذه المثاليـــة بقيت مهيمنة لارتباطها بحتمية مصر نفسها، فأفاد منها الملوك المقدونيون في القرن الثالث قبل الميلاد وتوارثوا العمل بهـا ، فكانوا أسعد حظاً من أسلافهم الذين تعاقبوا على الحكم مدة ألف وخمسمائة سنة قبلهم ، كما كانوا اكثر تفوقاً منهم في وضع هذه المثالية موضع التنفيذ .

مراقبة الحياة المادية وغنى التاج

لدينا من الوثائق ما يقيم الدليل القاطع على ما بلغته الادارة في عهد الامبراطورية الوسطى اذ ذاك ، من الدقـــة والانضباط وشدة المراقبة لنظام الحياة المادية في مصر الفرعونية . فهي تعطينا فكرة صحيحة صادقة للكيفيـة التي كانت تجري عليها عمليات الاحصاء العام في البـلاد ، وهو احصاء يضبط بيان الاشخاص الذين تتألف منهم الاسرة الواحدة او الاشخاص الذين يعيشون تحت سقف واحد ، وتبيـان ما تملكه الاسرة من ماشية وعقارات قيـد الاستغلال ، كل ذلك تحت مراقبة واشراف عدد من المراقبين الاداريين ، بينما كانت عمليات البيع والشراء والهبات والوقوفات ، والارث وغير ذلك من وسائل التصرف خاضعة بصرامة لقيود التسجيل الرسمية .

ان تنظيماً بمثل هذه الشدة والضبط من شأنه بالطبع ان يتيح للادارة الملكية ان تؤمن ولو

مبدئياً، لكل فرد وسائل العيش وأود الحياة ، فتعين له عملاً تتحكم هي بجميع أسبابه ومقوماته، اذ لم تكن الارض تزرع والمهن تمارس وتحترف الا باسم الملك الاله الذي في شخصه تتمثل الدولة وتتجسّم .

عاد هذا النظام الاداري الآسر بفوائد عظيمة على السلطة ، وبمنافع جليلة ، فضربت على الناس السخرة ، وألزمتهم السهر على صيانة الاقنية وسلامة الترع النهرية واجبرتهم بتشييد السدود وبناء الطرقات ، وتأمين أعمال النقل والبناء ، كما تفرض ذلك مرضاة الآلهة وخدمة الدولة النصوحة . وكانت الادارة تسهر على جباية ضرائب مختلفة ليس بالامكان تحديدها بالدقة المطلوبة في أي عهد من عهود مصر الفرعونية ، ولا تحديد تفاصيلها ومعدلها . وكان بين احكام الخراج ما يتعلق بجباية الميرة على الاشخاص والرسوم المفروضة على الماشية ، وضريبة الاعشار التي كان يتعهدها متعهدون مشايلة أو على أقدار معينة ، وعلى محاصيل الارض وغلة كل شجرة ، وغير ذلك من الرسوم المختلفة .

كان كثير من هذه الضرائب والاعشار يجبى عيناً ، كما كان الملك يدفع عيناً ايضاً بعض مرتبات موظفي الادارة هو الآخر . وكانت الاعطيات التي يغدقها على المحاسيب وذوي الحظوة ، تدفع لهم من غلال بعض الاملاك او من الرسوم العائدة جبايتها للملك . فلا عجب بعد هذا ان تنعم الادارة بكنوز طائلة وخيرات لا تحد ، فتختزن المعادن الثمينة خامات او صنائع فنية ، وان يوضع تحت تصرفها حواصل واهراء تغص بالحبوب والثمار والشراب والجلود وغير ذلك من غلال الارض . وكان الداخل والخارج يضبط في قيود دقيقة ينظمها محاسبون مجربون ، كما يتضح ذلك من بعض البرديات التي بلغت الينا .

وكان من نتائج هذا الجهاز الاداري المحكم الذي كاد يبلغ سدرة الكمال ان يؤول ، حتى في المواسم المتوسطة المردود ، الى هذا الغنى الاسطوري الذي رفلت به الملكية في مصر . ليس باستطاعتنا ان نعطي هنا أرقاماً لما بلغه في ء الدولة المصرية ولا نفقاتها ، وهي ارقام بالطبع يسيل لذكرها اللعاب وتدهش من يسمع بها ، كما كانت تثير الشهوة الجامحة والنهم في نفوس الأغراب ، وشذاذ الآفاق الذين كانوا يتشوفون الى غزو مصر والاستمتاع بخيراتها الوافرة والاستيلاء على الكنوز المخبوءة في عنابر الملك . فقد استهدفت مصر الفرعونية للعديد من هذه الغزوات والفتوحات التي كان يمكن ان يتضاعف عددها لو لم تنعم البلاد بموقع جغرافي عازل ممتاز جعلها، الى حد كبير ، بمأمن من المستنبحين وبمعزل من الطامعين .

ان مجرد السيطرة على البلاد ، مهما قصر مداها وضاق عهدها ، كان كافياً ليؤمن لصاحب الأمر فيها الذي عرف ان ينشر لواء سلطته فوقها ، موارد طائلة ، ودخلاً هائلاً . فكيف به ، وما عسى ان يكون أمره ، اذا بسط نفوذه العسكري فوق النوبة وما تحويه من مناجم الذهب ومن موارد غنية اخرى كالعاج والاخشاب الثمينة ، وفوق شبه جزيرة سينا ومناجمها الغنية ،

وعلى ما يجاورها من أقطار آسيا الغربية التي كانت تستأثر بتجارة العالم اذ ذاك فكانت مجالاً لحركة الاعمال والصنائع وأغنى بقاع الارض بغلال الحنطة . وبفضل الخراج الذي كان فراعنة الامبراطورية الحديثة يجبونه من هذه الممتلكات ، واستثمارهم لحسابهم الخاص املاك الدولة في كل من النوبة وسيناء ولا سيما مناجمها الغنية ، استطاعوا ان يخففوا بعض الشيء من وطأة شبكة النظام الاداري الذي أحكموا حبكه ، وان يخفّضوا من حدة رسوم الجباية المرزحة التي كان الشعب المصري يئن منها .

والى هذه الرسوم والضرائب القانونية المفروضة ، يجب ان نضيف بالطبع ، ولو نظرياً ، وان نحسب حساب أعمال الابتزاز والاعتصار والاعتساف التي كان ينزلها بهذا الشعب الرازح المستكين ممثلو السلطة في المقاطعات والأقضية ؛ والموظفون الاداريون كانوا جميعاً يحكمون ويديرون امور البلاد والعباد باسم الفرعون ، فيجدون في النظام الاداري الذي ينتظمهم اكثر من مهرب أو فجوة للعبث بمصالح الناس والاثراء . وتاريخ مصر القديم مليء بأخبار التشاكي والتباكي من المظالم تقع على السكان ، فتتصاعد زفرات محرقة وتنهدات كاوية لما يتعرضون له من مغارم ، وهي امور لا بد ان يقع مثلها في كل نظام مهما اشتدت فيه الرقابة . ولذا نرى الفلاح المصري يرضخ مستسلماً للواقع ، قلما يرفع صوته شاكياً وقلما يحاول الانتفاضة منجاة له من مظلمة تصيبه . فالفاتحون والغزاة الأجانب الذين سوّلت لهم النفس بفتح مصر وغزوها ، كثيراً ما عوّلوا على ما عُرف به المصري من روح الاستسلام فباء فألهم وعادوا بأكثر من خيبة عندما حاولوا العبث بتقاليد البلاد الحضارية ولا سيما بتقاليدها الدينية .

وقد عاد هذا النظام الاداري الآسر على السلطة بفوائد عظيمة ومنافع طائلة فأقصرتهم على اعمال شاقة اخذتهم بها كالسخرة والاشغال الشاقة ، واكرهتهم على تأمين سلامة الاقنية والترع النهرية وتشييد السدود ، وبناء الطرقات ، وغير ذلك من اعمال النقل والبناء والصيانة التي يقتضيها كسب رضى الآلهة وخدمة الدولة . وكانت الادارة تسهر على جباية الضرائب العديدة ، وهي ضرائب لا نستطيع ، في أي عهد من عهود مصر الفرعونية ، ان نحدد بالدقة المطلوبة ، تفاصيلها واقدارها او معدلاتها ، ومقدار الفيء الذي تؤمنه للتاج. وبين هذه الضرائب ولا شك ما يتعلق بجباية ضريبة الاعناق ، والضريبة المفروضة على رؤوس الماشية ، وضريبة الاعشار التي كانت تلزم المتعهدين مشايلةً أوعلى أنصبة معينة ، وغيرها مما يتناول محاصيل الارض وغلال الحقول ، ورسوم الحرف والمهن ، وغير ذلك .

فالغنى الذي رفل به الفراعنة أتاح لهم انشاء دولة ذات جهاز اداري صارم محكم الحلقات يعج بالموظفين ، كما أتاح لهم تكوين جيش لجب لم يكن دوماً من العزّة والقوة المرتجاة ، كثير التكاليف ، باهظ النفقات لاعتماده بالاكثر على المرتزقة من الاغراب ، وانشاء بلاط فخم وبطانة تعج بالخدم والحشم والعبيد لم يقم في الارض ما يضاهيها . ومع ذلك فالتكاليف الباهظة كانت تلك التي تذهب في سبيل الآلهةوخدمة الفراعنة الآلهة، الأموات منهم والأحياء . فالمراسم

الدينية التي كانت تأخذ احتفالاتها بمجامع القلوب مكّنت الفن الوطني من التجلي والظهور في أبدع صوره . وفي هذا السبيل سخّرت الحكومة كل ما في البلاد ومن عليها لتحقيق هذه الحضارة الفرعونية الباهرة وما بلغته من عظمة ساحقة صادعة . ويكفي المؤرخ ان يسجل هذه الحوافز دون ان يكون لديه من المعايير ما يسمح له الجزم بالتكافؤ بين هذه الشقة وتلك .

الموظفون والنظام الملكي

في تاريخ مصر الفرعونية مثال قد يكون ابرز ما تقدمه لنا الملكية المطلقة . فالحق الالهي الذي هو الاساس والنتيجة المحتومة لكل الانظمة من هذا النوع ، وجد في هذا النظام تعبيره الأقوى والأمثل وعاد بأبعد النتائج وأقصاها . ولكن لكل نظام على هذه الشاكلة مساوئه الداخلية التي تتمثل بهذه الغريزة التي تجيش في نفس كل موظف ، من أي فئة كان ، فتنزع به للتحرر من كل مراقبة وتحدوه لتوسيع الصلاحيات التي اولته اياها السلطة العليا لتنفيذ الاوامر والتعليمات ، فراح يستخدمها للاثراء . وهذه النزعة لا تكوّن الحذور الاكبر في نظر السلطة ، اذ كثيراً ما كانت تنزع نفوس كبار العمال والموظفين الاداريين ، للارتقاء الى مصاف صغار الملوك فيتصرفون بالاقطاع الذي قُطِع لهم كما يرغبون ، وتشرئب نفوسهم احياناً الى مصاف الملوك الذين يبسطون سلطتهم فوق مصر برمتها . فكان على الملكية ان تعرف كيف تتفادى دوماً خطر الوهن يدب الى نظامها ، والانحلال يُصيب وحدة البلاد فتتعرض معه لخطر اغتصاب السلطة الشرعية . ولم نر ان النظام الملكي عرف كيف يتجنب هذه المخاطر حقبة من الدهر زاد امدها على اكثر من مائتين او ثلاثمائة سنة .

وحركة الاغتصاب للسلطة التي كانت تتكرر بالمظاهر الواحدة تقريباً من شأنها ان تحدث بعض الدهش في النفس . فقد كان على الفراعنة امام هذه التجارب المرة المتكررة ان يبرهنوا عن فطنة اكبر للحيلولة دون مواجهتها مرة اخرى .

فامام هذا الخرق الذي برهن عنه الفراعنة ، يحق لنا ان نتساءل عما اذا كانت مصر قديماً اصيبت بعقم بالرجال الاكفاء الخليقين بالاضطلاع باعباء الوظائف العليا مع بقائهم في الحدود المرسومة لهم . فمن بين جمهرة السكان السلبيين القابعين في اشغالهم اليومية ، لم يُبرزوا — ولم يجربوا ان يبرزوا — نخبة مختارة من الموظفين الاكفاء ، ثقافياً وخلقياً ، تكون من الكثرة والوفرة بحيث يختارون من بينها القدر الكافي لتأمين الادارة . لم يتوفر لكل الشعوب في كل ادوار تطورها التاريخي ما يلزم الدولة من موظفين اكفاء يجمعون بين الاختصاص والاخلاق وصدق الولاء ويحققون مثالية الدولة التي راودت الحضارة المصرية لتشييد البناء الديني والعلماني ، والمدني والعسكري .

ولعله من المفيد ان نحسب هنا حساباً لهذه الذهنية التي سيطرت على النظام الملكي المطلق في مصر ، وجعلت فراعنة مصر يعتقدون ان مصر مُلكٌ خاص او متاع خاص بهم ، فيستدنون

بموجبها ذوي قرباهم المتكاثر عددهم بتعدد الزوجات ، ويقربون رجـــال بطانتهم ومحاسيبهم ، وقد اطمأنوا الى ولائهم في البدء . الا اننا على مر الاجيال وكر السنين نرى محاولات عدة للتحرر يقوم بها اصحاب الحظوة للاستبداد بامر السلطة . ويمدّنا التاريخ بالكثير من الامثلة على ذلك .

انحلال الامبراطورية القديمة وزوالها

على مثل هذا الشكل الموصوف تم ، على الاخص، انحـــلال الامبراطورية المصرية القديمة ، كما يتضح ذلك ، بصورة لا تدع مجالاً للشك ، من الوثائق العديدة ، ودون ان ندخل في تفصيل ذلـــك يكفي ان ننوه هنا لماماً ببعض الاحداث المميزة .

نالت الهياكل العديدة هباتٍ واعطيات واسعة من الاراضي والعقارات اعفاها الملوك الذين أسبلوها من الرسوم وغيرها من الضرائب المالية المعمول بها إذ ذاك ، كما انهم حوّلوا لها رسوم الجباية التي كانت تُفرَض على مستثمري الاراضي العائدة للملك . كل هذه الهبات ذهبت منافعها بالطبع لرؤساء الكهنة الاقليميين او المحليين الذين حاولوا ان يجعلوا مناصبهم وراثيـــة في ولدهم واسرتهم .

كثيراً ما كان هؤلاء الزعماء الدينيون يجمعون بين المراتب الدينية والوظائف المدنية ، هذه الوظائف التي كانت تولي صاحبها او « المحافظ » ، — كما يسميه الاغريق — رئاسة المحافظة ، وقد حصل هؤلاء الموظفون ولا سيما الكبار منهم على إقطاعات عريضة من الارضين نالوا معها حق نقلها بالوراثة الى ابنائهم من بعدهم .

ففي الوقت الذي كان فيه جميع من في البلاط يفاخرون بقرابتهم بالملك ويعتدّون بصداقتهم له وتقربهم منه وملازمتهم لبطانته ، اخذت اواصر هذه القربى ووشائج هذه الصداقة تتراخى بسرعة مع الزمن وتخف عراها . والضعف الذي اعترى السلطة المركزية كان من بعض نتائجه الوخيمة ان يحمل بعض مرضى النفوس ممن يتوقون للسلطان ، على مناصبة الملك العداء المكشوف فنشأ عن هذا الوضع في المقاطعات ، طبقة من النبلاء او الاشراف المحليين ، كما زاد من توسيع نفوذ الموجودين فيهم من قبل ، وكلهم يحاول التجاوز على امتيازات التاج او اختلاس حقوق الارتفاق الملكية المفروضة على مساحات شاسعة من الاراضي المصرية ، او يتألبون ضد الملك تحت سلطة احدى الاسر البارزة ، ويتنافسون فيما بينهم ويتحاربون احياناً ، محاولين إخضاع الفلاحين لسلطانهم . فنتج عن هذا كله فوضى قاصمة في البلاد وما الى الفوضى من ضعف السلطان ورهن السلطة المركزية ، وانفصال المقاطعات وتناثرها بدداً . فقد كان هذا الوضع الاجتماعي الذي برزت عليه مصر الفرعونية في النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميـــلاد اولى سوابق نظام الاقطاع الذي ساد المجتمع الاوروبي في القرون الوسطى .

الإصلاح الاعرج

استطاع ملوك طيبة الأوّل من الامبراطورية الوسطى ، في اواخر السلالة الحادية عشرة وبدء الثانية عشرة ، ان يعيدوا الى البلاد وحدتها المثلومة

فيعود الأمر الى نصابه والنظام الى محرابه . واستفادوا كزملائهم ملوك الامبراطورية الحديثة درساً واتخذوا لهم عبرة من هذه التجربة المريرة التي مرّت بها البلاد . فخسر منصب «المحافظة» على الاخص ، في عهدهم ، كثيراً من اهميته ولم يبق له من الوجهة العملية كبير شأن فاستحال الى رتبه شرفية لا غير . وكذلك حدث للوظائف الكبرى الاخرى ووفروا لها من يقوم بها بعد ان رفّعوا اليها من برهن عن كفاءته واخلاصه وولائه للملك ، في الوظائف الدنيا التي اسندت اليهم .

ومع ذلك فالخطر لم يُقضَ عليه تماماً ، إذ رفض الملوك التخلي عن الاساليب التقليدية البالية التي نهج عليها اسلافهم من قبل ، لما كانت تؤمّنه لهم ولذويهم ولبطانتهم من منافع مادية . فالقضاء على هذه الاساليب كان يقتضي له تقويض النظام القائم من اساسه وإلغاء الاعراف والتقاليد التي سار عليها المجتمع المصري إذ ذاك .

ففي عهد الامبراطورية الوسطى كاد النظام الاداري يبلغ الكمال . لا شك في انه بقي في بعض المناطق والاقاليم وظائف هامة لها شأنها تشرى وتباع . فالارشادات والتعليمات التي اصدرها الفرعون مريكاره والتي كانت تتنزّى بعاطفة انسانية كريمة ، كانت توصي بالاحتراز من العملاء الفقراء والموظفين المتوسطي الحال لما تجيش به نفوسهم من حسد وجشع ، كما كانت توصي بالتوسيع حول الكبار منهم او « العظام » الذين لهم من الغنى والثراء والبحبوحة ما يسد مطلب النفس ويحد من نهمهم فيعتصمون بحبل التجرد بعيدين عن المحاباة والاخذ بالوجوه . والملاحظ على الاجمال هو ان حمى التوريث ظهرت من جديد واستمر العمل بها ، كما يبدو ذلك واضحاً في عهد الامبراطورية الحديثة عند وفاة كبار الموظفين ورؤساء الكهنة . وقد خضعت الوزارة ، كما نحسب ، لنظام الوراثة بالرغم من الصفة الخاصة التي تلابسها ، وبذلك استقر منصب الوزارة مدة طويلة في بعض الاسر . كذلك أُعيد الاخذ بنظام إقطاع الاراضي للجنود وللموظفين مكافأةً لهم على خدمات قاموا بها او تسديداً لمرتباتهم ، كما اعيد العمل بنظام جمع وظائف عدة في شخص فرد واحد .

فلم يلبث أن أطلّ الخطر من جديد على نظام الملك في مصر ، هذا الخطر الذي تمثل في الدور الذي لعبه الجيش في تسهيل مهمة المغتصبين للسلطة العليا في البلاد . ولعل خير شاهد على هؤلاء القادة المجدودين هو مثل القائد حورمحيب الذي بعد ان حقق انتصارات باهرة في ساحة الوغى وحمل ألقاباً عالية ، مثل : « قائد قواد الجيش » ، و « المدير العام للأعمال » هذا اللقب الذي كان يوليه سلطات عسكرية ومدنية واسعة جداً ، نودي به ملكاً على مصر بعد ان سبق لكاهن امون وتنبأ بصيرورة الملك اليه ، ثم تزوج من احدى الاميرات لتأييد شرعيته في الحكم وترسيخ سلطانه على البلاد ، ثم بادر الى تقديم تاريخ وصوله للحكم فجعله توّاً بعد وفاة امنوفيس الثالث ، ضارباً عرض الحائط بالملوك الأربعة الذين تقدموه على العرش ، بعد ما عُرفوا به من عداء لاله طيبة امون ، كأمنوفيس الرابع ، او من تنكّر له .

رئيس كهنة أمون

تبين هذه الحادثة المنزلة العالية التي تمتع بها رئيس كهنة أمون والدور السياسي الذي لعبه في البلاد . فليس بغريب قط ان يصبح رئيس الكهنة الشخصية الاولى في الدولة بعد الملك وان يحل محله احياناً .

كان الملك يرأس حفلة تنصيب رئيس الكهنة الأعظم ، ملتمساً من الاله امون وضارعاً اليه ان يستجيب لتحقيق رغائبه ومشيئته التي يعبّر عنها بالتماسات ومراسم كانت تخفي وراءها الكثير من الدسائس والتطبيقات والمناورات والألاعيب . وكان على الملك ان يستدرج رضى الاله بالاكثار من الأعطيات والتقادم التي كانت تذهب للهيكل فتزيد من سلطة كهنة امون وبالتالي من شأن رئيس الكهنة الذي كان يعيش عيشاً مترفاً ويسكن في دائرة خاصة تعج بالحشم والخدَم فتشمل سلطته جميع الكهنة والعاملين في الاملاك والعقارات التابعة لهيكل امون . وكثيراً ما كانت سلطته الدينية تمتد الى جميع اطراف البلاد فتشمل الكهنة القائمين على خدمة الهياكل الاخرى . وكان رئيس الكهنة يمارس الى جانب وظيفته الدينية وظائف مدنية اخرى حتى العسكرية منها . فمن الطبيعي والحالة هذه ، ان تطمح نفسه ليجعل منصبه وراثياً في اسرته .

فالاصلاح الذي قام به امنوفيس الرابع اخناتون لم يستهدف الاله امون فحسب ، بل طغمة رجال الدين ورئيس الكهنة نفسه الذي اخذت الملكية تخشى الوقوع تحت وصايته ، الا ان المحاولة باءت بالفشل واستفحل بالتالي خطر رجال الدين. وفي اواخر اسرة رعمسيس اي السلالة العشرين ، في نهاية الالف الثاني قبل الميلاد ، اصبحت وراثة مركز رئيس الكهنة القاعدة التي سير بموجبها في البلاد .

والظاهر ان هذه الوراثة لم تصبح مرقاةً للشخص الذي عرف ان يفيد من هذا التطور هريحور . ومع اننا نجهل الكثير من الوشائج العائلية التي كانت تلابسه ، فاننا نراه بعد ارتقائه الى رئاسة الكهنوت ، نائباً للملك في النوبة ووزيراً له ، وقائداً اعلى للجيش في الوجهين البحري والقبلي . وتتيح لنا الرسوم والنقوش في هيكل الكرنك ان نتتبع المراحل التي مرّ بها الى ان آلَ اليه التاج الملكي . وفي هذه المرحلة بالذات نرى الوجه البحري يؤول الامر فيه الى وزير سابق تزوج من احدى اميرات الاسرة المالكة . ومع ان هريحور يرسخ دعائم الاستقلال التام فهو يسمح بان يلقبوه هو وزوجته بملوك الصعيد . وبعد ذلك نرى لقب الملك يصير في عدة اجيال متلاحقة ، اي في عهد السلالة الحادية والعشرين ، من ألقاب رئيس كهنة الاله امون . وهكذا نرى الملكية تعجز عن الدفاع عن امتيازاتها ضد تعديات كبار الموظفين وتجاوزات رؤساء الكهنة فتوغل في الفوضى .

وهكذا نرى ايضاً البون الشاسع بين الحقيقة والمثال الاعلى . فالوضع في مصر القديمة يعطينا بوضوح وجلاء ، صورة صحيحة للخطر المزمن الذي احاق بالنظام الملكي المطلق ، هذا الخطر الذي تمثل خير تمثيل في كبار الموظفين .

الفصل الثاني

النظم الاقتصادية والاجتماعية

ان استعراض هذه النظم يوجب ابداء الملاحظة التالية : من العسير جداً تكوين فكرة شاملة وواضحة عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية في مصر القديمة . أجل نحن لا نفتقر الى ما يستعيد أمامنا هذه الحياة ، فالرسوم والكتابات والروايات اكثر من أن تعدّ ولكننا نفتقر الى الايضاحات العددية والاحصائية . ولذلك فعلينا الاكتفاء بلوحة لا يتساوى فيها توزيع الاضواء تتضح لنا فيها تقنية الانتاج المادية والمقايضات دون ان تتيسر لنا رؤية نتائجها وتوزيعها أي ارتباطها بالحوادث الاجتماعية التي تسببها مع ذلك وتتأثر بها في آن واحد .

النظام المثالي

من النافل التشديد على النتائج الاقتصادية والاجتماعية التي يستلزمها المفهوم المثالي للملكية المصرية : كان على الفرعون الاله ، منطقياً ، ان يمارس في كل شيء دور وكيل الآلهة العظماء على الارض ، وعملياً ، بالتالي ، دور صاحب الملك وصاحب العمل المباشر . وكان عليه بفعل سلطته المطلقة ان يعين لكل شخص عمله وأجره .

سبق وبيّنا ان هذه النتائج النظرية ، اذا ما ألقينا نظرة شاملة على التاريخ القديم ، لم يعمل بها الا في حالات وظروف نادرة . فباستثناء عهود ازدهار الامبراطوريتين القديمة والوسطى ، وهي لا تتعدى القرون الخمسة ، عرفت مصر ، دونما انقطاع ، ما يعرّف عنه اليوم « بالنطاق الحرّ » . فمن يا ترى أوجد هذا النطاق ؟ هل هي حرية أنعمت بها السلطات أم غش واغتصاب اغضت عنهما هذه السلطات ؟ من ذا الذي كان يفيد من هذا النطاق بالاضافة الى الكهنة والمتنفذين الذين رزح الأهالي تحت وطأة مطالبهم كما رزحوا قديماً تحت وطأة مطالب الملك ؟ كلّها اسئلة لا جواب عليها لأن هذا الجواب يختلف دون شك باختلاف الازمنة والعهود .

ولكن بالرغم من هذا الغموض ، يسود الشعور بأن فقدان البادرة الفردية وحرية الفرد الاقتصادية والاجتماعية كامن في صميم منطق الحضارة المصرية القديمة . فنظام هذه الحضارة المثالي يفرض واجبات دقيقة يحول اهمالها دون تحيزه في كماله وبهائه . ويبدو ان الامبراطورية الحديثة وحدها قد بلغت هذا الكمال دون الاضرار بعظمة الحضارة القومية ، أقله في الفترات المجيدة

من حكم السلالتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة . ولكن هاتين السلالتين استثمرتا في آن واحد البقاع المصرية نفسها وممتلكات خارجية واسعة الاطراف من شأن مواردها ان تقلب معطيات القضية نفسها .

١ – الحياة الاقتصادية

الموارد الطبيعية واستثمارها

الزراعة مورد البلاد الكبير العجيب الذي لا ينضب . في صيف كل سنة ينقل فيضان النيل الى الارض التي فلعتها الحرارة المياه والاوحال المحيية فيستقبله السكان بالمزيد من الفرحة وعرفان الجميل . وفي الخريف يأخذ النهر في الانخفاض، فتبدأ أعمال الحراثة والبذر في المساحات الصالحة للزراعة التي لا أثر فيها للأرض البور ، والتي لا تحتاج ، بفعل غمر المياه ، الا الى حراثة سطحية . وكثيراً ما كفى لطمر البذار ان يستعمل المحراث البدائي أو ان تقرع الحيوانات الأرض بأقدامها .

دوّن الرحالة الأغريق اعجابهم بسهولة العمل ووفرة المحاصيل في مصر وقد بدت لهم تربة بلادهم ، بالمقارنة ، وكأنها أم جافية رديئة . ولكن لا نأخذنّ حرفياً بالتأكيدات والأرقام التي وردت على أقلامهم . فالفلاح المصري ، كأي فلاح آخر ، يتعب ويتعنّى ولا يذوق للراحة طعماً الا في أسابيع معدودة اذ تغمر المياه البلاد بأجمعها فتستحيل كل قرية جزيرة صغيرة . وما ان ينخفض النهر حتى يتوجب على السواعد البشرية تأمين أعمال الري المغذية ومعاونتها وتسييرها... وقد أوجب تنظيم الري وتجفيف المستنقعات ان تشيّد السدود وتحفر الأقنية ويعنى باصلاح هذه وتلك بثبات ، كما كان يقتضي في مراحل نموّ المزروعات ان تمدّ الأقنية الصغيرة بالمياه ، أقله في البساتين ، وذلك بجمعها ونقلها من الغدران أو الآبار أو النهر نفسه بواسطة رقاص خشبي خاص أو باستعمال أوعية ثقيلة. قامت السواعد البشرية في سبيل ذلك كلّه باعمال فيها الكثير الكثير من العناء والمشقة . وكان الحصاد يتطلب بدوره يداً عاملة لا تحصى توزع فرقاً تنتقل نزولاً من الوادي نحو الشمال تابعة في سيرها توقيت نضج المزروعات .

ومن نافل القول ان هذه الجهود الجبارة كثيراً ما أعطت ثمارها . فيكفي أن يبلغ الفيضان منسوباً وسطاً – ١٣ متراً في الوادي و ٧ امتار في الدلتا – حتى تأتي المكافأة غاية في السخاء يتلمس فيها السكان عطف الآلهة عليهم . ولكن يتعذر القطع في من كان يفيد عملياً من هذا المن .

كانت الحبوب ، لا سيا الشعير والقمح ، قوام المحصول الزراعي . وكان هنالك ، بالاضافة الى الحقول نفسها ، البساتين بخضارها وشجرها المثمر وكرمتها المعرشة ، وتربية المواشي ، لا الحصان – الذي أدخله الغزاة الرعاة مصر في النصف الثاني من الألف الثاني واستأثر به العظماء – بل الثور والحمار ولا سيا الخنزير والخروف والعنز والطيور الداجنة من أوز وبط . ولم يكن الدجاج معروفاً بعد.

توفر لنا النقوش المدفنية بدقة كل تفصيل حول هذا النشاط الزراعي بحيث يمكننا ، انطلاقاً منها ، ان نشير في هذا الاحصاء الى أبعد حدّ . ويصحّ القول نفسه عن القنص والصيد اللذين مارسهما المصريون بجميع الوسائل والادوات المختلفة واللذين لم تنحصر الغاية منهما في التسلية والرياضة : فبالرغم من الحظر المفروض هنا وهناك على استهلاك هذا أو ذاك من الطير والحيوان، اسهم الصيد والقنص الى حدّ بعيد في تنمية الموارد الغذائية .

استطاعت ارض مصر ان تؤمن لملايين البشر الغذاء واللباس في اقليم ملائم عطوف ووفرت لهم في الوقت نفسه المنتوجات المادية الضرورية لحضاره كبيرة .

أجل كانت مصر تفتقر الى الحديد وخشب البناء . فالحديد لم يستخرج من قبل ولمدة طويلة سوى من النيازك ، فكان بالتالي نادراً جداً يستعمله الصاغة معدنا للزخرف . ولم يعمّ استعماله ، بفضل الاستيراد ، الا قبيل الألف الأول . ولم تكن الاشجار نادرة في مصر ، غير ان أشجارها من نخيل واثل وما اليهما كانت جميعها عقداء لا تصلح للبناء . ولم تقم في مصر على كل حال غابات ظليلة ، فتحتم عليها ان تأتي من النوبة بالأخشاب الاستوائية ، ومن سوريا ، عن طريق فينيقيا ، بخشب الأرز والصنوبر . وقد اعتمدت أعمال بناء السفن خاصة على الأخشاب المستوردة من الخارج .

كل ما عدا ذلك كان كثيراً ووافراً . فالأسوار الصخرية في الصحارى القريبة تؤلف مناجم لا تنضب لحجارة البناء الجميلة المختلفة ، والوحل ، اذا خلط بالقش أو بالقصب وجفف تحت أشعة الشمس المحرقة، يوفر للمهندسين احدى مواد البناء الكثيرة،والذهب المستخرج من الصحراء العربية ومن النوبة يكاد ينافس الفضة . أضف الى ذلك وفرة النحاس في سيناء والحجارة الكريمة على انواعها من زمرد وفيروز وما اليهما في الصحراء والنوبة وسيناء .

ولم تقتلع هذه الحامات من جوف الارض ، وشأنها في ذلك شأن الحصائد ، الا بالمزيد من الجهود الناصبة . روت النصوص أخبار بعض البعثات في الصحراء، واعمال حفر الآبار، واستخراج الغدرات الضخمة ، واكتشافات عجيبة في بقاع خالية ، ولكنها اقل اداء ، على العموم ، من تلك المشاهد المصورة التي تمثل نشاطات الفلاح والصياد وقاطف العنب . ولا شك في ان قسمة عمال المقالع والمناجم – وهم في الغالب من اسرى الحرب الارقاء – كانت أشد وأدهى من قسمة الفلاح ، فهم يشقون عطاشاً تحت أشعة الشمس المحرقة يحيط بهم الجنود الذين يتولون حماية الثروات المكتشفة والمؤن من غزوات البدو . وفي الواقع كان على الطبقات الكادحة في مصر ان تصبر ، في سبيل حياة مصر وازدهار حضارتها ، على نظام لا يقيم وزناً لألم ولا يأبه غالباً للحياة الفردية نفسها .

التحويل والمقايضات

توفر لمعالجة هذه الخامات عمّال على قسط كبير من المهارة والتقنية والفن . ولم يكن يومذاك من تمييز بين أصحاب الحرف والفنانين . وقامت المعامل

على أنواعها في كل مكان ولكننا لا نعرف منها سوى تلك التي تتعهدها المعابد والبلاط الملكي لاحاطة الآلهة والملك الاله وحاشيته بمختلف ادوات الزينة والزخرف . واكتفى السواد الاعظم من السكان بالعادي العادي من الاواني الخزفية . فلطف المناخ يحدّ من حاجتهم الى المنسوجات التي تؤمنها الصناعات البيتية، ولم يكونوا بحاجة للاستعانة بعمل الاختصاصيين المأجور سوى في ظروف الجنائز . وكان بمكنة الحاكة والنجارين والصاغة والحكاكين والنقاشين ان يصنعوا التحف الجميلة لطبقات المجتمع العليا . اما القسم الاكبر من هذا الانتاج فقد أضيف الى كنوز المعابد او خبىء في المدافن المظلمة بانتظار عبث الناهبين في غفلة من السلطة ، او تنقيب الأثريين موّاني المتاحف .

وكان بمكنة التجارة الداخلية ان تتصف بنشاط واسع لأن موارد الدلتا والوادي غالباً ما تتكامل ولأن الانهار والترع تسهل حل معضلة النقل . غير ان المثل الاعلى لتنظيم البلاد لم يكن ليشجّع المقايضات الخاصة ولو طبّق بالتمام لأفضى الى الاحتكار الكامل لصالح الدولة ، اذ يصبح من واجب السكان المنخرطين فرقاً في خدمة الآلة الحكومة الضخمة ان يتلمسوا بمثابة اجر من المخازن الرسمية كل ما يحتاجون اليه . وهذا ما حصل في اكثر الاحيان لبعض طبقات المجتمع التي يستحيل تحديد نسبتها في مجموع السكان : عمال الحرف وفلاحو املاك كل من المعابد والدولة؛ الجنود والموظفون والكهنة الذين غذت هذه المخصصات محاصيل اقطاعاتهم. ولا عجب بعد ذلك اذا ما رأينا ان التجارة ، حتى الصغرى الصغرى منها ، تبدو في مصادرنا جديرة بكل انتباه واهتمام .

وتجدر الاشارة هنا الى ان مصادرنا هذه محصورة مواضيعها في مصر العليا تقريباً إذ انها سهلة المراقبة والادارة بفعل انحصارها . ويبدو ان الدلتا جاشب على الدوام بحياة حضرية لم يعرفها الوادي وتملّصت ببعض السهولة من المركزية التي اضاعت جهودها في هذه الشبكة من الشعب النهرية والمستنقعات . وكانت المجموعات البشرية اكثر انعزالا فيها فشعرت بصوالحها وبقوتها الحقيقية ، وشدّتها الى الخارج علائق كثيرة اتاحت لها الاخذ بالاساليب المعتمدة في حضارات الشرق الادنى الاخرى . وليس من الصدف ان يكون الملك بوخوريس ، الذي اشار ديودور الصقلي الى تشريعه حول العقود ، ملك سايس احدى مدن الدلتا . ولكن هذا الدليل والأدلة الاخرى التي تثبته — وجود التجار الاجانب ورواج النقد الاجنبي الخ .. — لا يعود تاريخها الى ابعد من اواخر القرن الثامن قبل الميلاد .

وبالفعل لم يعرف النقد في مصر حتى عهد متأخر جداً مع انه الاداة الضرورية لنشاط المقايضات : فالاسكندر وخلفاؤه البطالسة هم الذين عمموا استعماله . كذلك لم تظهر سبائك الذهب والفضة والنحاس إلا في اواخر الالف الثاني بعد ان تكاثر سلب الكنوز والمدافن . ومن قبل ، اي في عهد الامبراطورية القديمة والعهود اللاحقة ، اعتمد المصريون للتقويم والتخمين ، منذ ايام الاسرة التاسعة عشرة ، وزنا معدنياً كوحدة حسابية مثلى ، ثم اخذوا يتقايضون

محاصيل او سلعاً تعادلت قيمتها مضطرين احياناً لاضافة هذه او تلك من المواد الاخرى تعويضاً عن فرق في القيمة او الوزن . وجليّ ان هذه الاساليب وما اليها قد شلّت حركة الصفقات لانها لم تكيّف وفقاً للحاجة .

التجارة الخارجية

ظلت التجارة الخارجية في حالة من الوهن والخور لا سيما اذا ما قورنت بوفرة المحاصيل المصرية وجودتها . ولا تترك لنا معلوماتنا ، على قلتها ، مجالا للشك في هذا الموضوع .

واذا ما اركنّا الى هذه المعلومات، جاز لنا القول ان التجارة الخارجية منوطة بالملك وحده تقريباً. هو وحده يتصرف بما يمكن تصديره من فائض الانتاج الزراعي او المهني ويقدر الحاجات الملحة لمواد الاستيراد ، لان المعابد والبلاط ، التي تستهلك وحدها هذه المواد ، تتعلق به دون غيره : فمصر التي تكتفي نفسها بالضروريات لم تلجأ الى الخارج إلا للكماليات من مصنوعات الزينة والزخرف ، والملك وحده اخيراً يمتلك الوسائل المادية لهذه التجارة اعني بها المراكب القادرة على ركوب « الخضراء الكبرى » والفرق العسكرية التي تواكب القوافل في مسالك الصحراء . لذلك غالباً ما ارتدت العلائق الاقتصادية بالخارج ، على الاقل في العهود الفرعونية ، صبغة التجريدات والمشاريع تتولاها الدولة نفسها .

وجب الحصول على الاخشاب من الموانىء الفينيقية واهمها جبيل التي ترتقي صلتها بمصر الى اوائل التاريخ والتي كثيراً ما بدت ، حتى ابان استقلالها الحقيقي ، وكأنها من توابع مصر : فاعتبر المصريون المقايضة في رواياتهم كتأدية للضرائب يليها تسليم الهبات . حصلوا فيها على العوارض الخشبية وبنوا فيها بعض المراكب تبسيطاً لعملية النقل . وقدم الفرعون بالمبادلة قطعاً فنية ومعادن ثمينة ومصنوعات متنوعة . وقد جاء في احدى الروايات ان اتفاقاً تمّ التوصل اليه في اوائل القرن الحادي عشر قبل الميلاد ، بعد مفاوضات عسيرة اجراها احد موفدي هريحور رئيس كهنة امون الذي ما لبث ان جلس على العرش ، لمقايضة الاخشاب المعدّة لمعبد الكرنك ، بقطع المصوغات والاقمشة الكتانيّة وخمسمائة لفافة من البردي وخمسمائة جلد بقر وخمسمائة كيس من العدس وثلاثين صاعاً من السمك المجفف الخ ..

وقد جرت المقايضات مع الجزيرة العربية ايضاً ، فكانت السفن تبلغ البحر الاحمر مروراً في شعب الدلتا الشرقية وفي قناة تنتهي الى البحيرات المالحة ومنها الى خليج السويس . وعمدت السلطنة المصرية ، كلما اشتد ساعدها ، الى ترميم هذه القناة المهدّدة على الدوام بغزو الرمول . وغالباً ما قطعت احدى التجريدات الصحراء العربية انطلاقاً من منطقة طيبة ولحقت بالاسطول على الشاطىء . فيبدأ البحث بعد ذلك في الجزيرة العربية وبلاد « البونت » وابعد الى الشرق في الخليج الفارسي وعند مصب الهندوس ، عن مصنوعات الشرق البعيدة العجيبة من جواهر ثمينة وعطور وطيوب. وقد حاول المصريون اكثر من مرة ان يقتلعوا الاشجار البخورية نفسها وينقلوها

بجذورها وأتربتها الى بلادهم وقد توفقوا الى ذلك فعلاً بأمر الملكة حتشبسوت، في اواسط الألف الثاني ، فجاؤوا ببعضها وأعادوا زراعتها في أملاك دير البحري وخلدوا هذه الذكرى بالمزيد من الكتابات والرسوم على جدران المعبد . وقد توجهت بعثات اخرى كثيرة أقل شهرة او أقل توفيقاً الى المناطق نفسها أو الى بلاد النوبة .

ولكن الأبهة نفسها التي كانت ترافق ذهاب هذه البعثات وعودتها والأمجاد التي يسعى اليها الملك من وراء نجاحها تكفي للدلالة على انها أبعد من أن تؤدي خدمات تجارة منتظمة .

لم تعرف هذه التجارة المنتظمة في الحقيقة الا في عهد متأخر ويعود الفضل الأول في ظهورها، على ما يبدو ، الى الأجانب لا الى المصريين . واذا ما عرفت قبل ذلك ، على الأقل في الدلتا ، فلأن « الخضراء الكبرى » مخرتها سفن أخرى كثيرة غير سفن الفرعون . فقد عثر على مصنوعات كريتية في مصر كما عثر في كريت على مصنوعات مصرية المصدر . وتشير النقوش والرسوم والكتابات الى أجانب ، ايجيين او اسيويين ، نقلوا الى مصر مصنوعات بلادهم. ولكن النصوص الرسمية تجعل منهم مندوبين جاؤوا يعلنون ولاءهم لسيّد أو لصاحب إخاذة. وتشير الأوديسيه من جهتها الى اعمال قرصنة قام بها المغامرون الأغريق ، ولعل الحقيقة في القول انها أعمال تجارية سلمية . وما من شك ايضاً في ان بعض التجار الفينيقيين أقاموا في مصر اقامة دائمة . ولكن مهما يكن من الأمر ، فقد بقيت هذه العلائق عرضية حتى القرن الثامن عندما احتاج ملوك سايس الى اليونانيين كمرتزقة فسمحوا لمواطنيهم بتعاطي التجارة على هذه الأرض التي كانت مطمح الأنظار الجشعة . وبعد التلمّسات الاولى التي اثارت في الرأي العام ردّة فعل صاخبة، حدّوا من حريتهم في نواحي البلاد المختلفة وفي الدلتا نفسها ، ولكنهم مع ذلك خصصوا اليونانيين بسوق تجارية هي نوكراتيس حيث أقاموا متاجر دائمة تمكنوا بواسطتها من مقايضة نبيذهم وزيتهم وخزفياتهم ومصنوعاتهم المعدنية بالقمح الذي كانت مدنهم اليونانية بحاجة اليه . ثم جاء ملوك الفرس فكانوا اكثر تسامحاً وتساهلاً. وهكذا فان مصر كانت آخذة في الانفتاح على التجارة العامة حين انتزعها الاسكندر نهائياً من عزلتها بتأسيس ميناء الاسكندرية « على مقربة » منها .

عزلة مصر الاقتصادية ونتائجها

كانت مصر الفرعونية اذن أبعد من أن تحقق جميع امكاناتها الاقتصادية . فقد تعنت وتأثرت ، في رجالها النشيطين الوادعين ، من الافراط في نسبة ما أقطع من محاصيلها تخصيصات للآلهة والملك الاله والموتى المؤلهين . ولجمت اقتصادياً في نموها الطبيعي بتجميد معادنها ومصنوعاتها الثمينة في كنوز معابدها وفي مدافنها . كما انها تعنت وتأثرت ايضاً بفعل انكماشها الطوعي والعرضي معاً على نفسها .

كان بمكنتها ان تنتج كثيراً وقد انتجت كثيراً في الواقع . كما كان باستطاعتها ان تضاعف انتاجها لو حسنت تقنيتها باعتماد اكتشافات الشعوب الأخرى وأساليبها . وكان باستطاعتها على كل حال ان تسدّ الى حدّ بعيد العجز التقليدي المزمن في تموين الشرق الايجي الذي يوفر لها

الخاصات اللازمة لأدواتها، وهي قد بذلت جهوداً متواصلة للتوفق الى ما يقوم مقام هذه الأدوات. كان من شأن المقايضات ، لو حصلت، ان تؤدي الى خير كلا الطرفين، ولكنها لم تحصل بالاتساع المرغوب فلحق الضرر بالجميع هنا وهناك .

قد تكون مصر توصلت الى تشييد حضارتها الكبرى قبل غيرهـا ممن بادلتهم المقايضات ، وهذا دليل سخاء الطبيعة عليها. غير ان الظروف الجغرافية ، من جهة اخرى ، حالت دون اقامة العلائق السهلة المنتظمة .

فيبدو والحالة هذه ان مصر القديمة نزعت الى العيش بنفسهـا ولنفسها خاضعة في ذلك لمثـل أعلى في الاستقلال الاقتصادي – وهذا المثل الاعلى فطري عند الشعوب والأفراد على السواء ، الا ان الشعوب تعرف كيف تهمله عندما تكون سلامتها بأمن من الاخطار – وقاصرة طلباتها الاستثنائية من الأجانب على مـا يكمّل مواردها الخاصة . فهي لم تبحث في الخارج الا عـن الاستزادة فقط . وقد أحاطت عـلى الدوام هذه الزيادة ، تبذل الجهود للحصول عليها ، بمـا يضفي عليها سمات الأهمية والندرة والزهو . عاشت مصر داخل اطار مقفل ، كلّما استطاعت الى ذلك سبيلا ، عازفة عن امتلاك الغابات اللبنانية نفسهـا وحاصرة في النوبة وسيناء أفق مطامعها الاستعمارية .

ألا يجوز لنا الجدّ في كشف أسرار سيكولوجية الشعوب ؟ وهل يجوز لنا ، على الأقل ، ان نعتقد بأن هذه الوقائع تفسر جزئياً تلك المشاعر التي أشار الأغريق اليها عند المصريين وتثبتهـا أدلة كاشفة كثيرة في مراحـل التاريخ القديم : تمسكهم المستميت بالتقاليد القومية وفخارهم الفطري بصفـات حضارتهم ورسوخها في القدم وشعورهم بتفوقهم الأدبي والديني عـلى الشعوب الاخرى ومقاومتهم كل اندماج بالغير واحتقارهم الأجنبي حتى وكراهيتهم له . فيمكننا دون تهوّر ودون عناء اثبات حقيقة التبادل بين فعل وتفاعل الأحداث والمشاعر في هذين النطاقين .

٢ – المجتمـــع

الأوضاع الاجتماعية : الرق

ان فقدان المستندات القانونية حول الأوضاع الاجتماعيـــة في مصر القديمة يفسر جهلنا المطبق المخيف الذي لا يجوز اخفاؤه .

لا شك في ان الرق كان منتشراً . ويبدو أن الأرقاء كانوا أجانب في الأصل : أسرى حرب وأسرى قرصنة أو لصوصية قدمتهم سلطات بلادهم بمثابـــة جزية أو تم شراؤهم من الخارج . وكثيراً ما حدث ان أعطي هؤلاء النوبيون والليبيون والأسيويون أسمـاء مصرية جديدة تثير الشك أحياناً حول حقيقة جنسياتهم . ولكن ليس من مثـل واحد اكيد على وجود عبدمصري بحصر المعنى ، مع اننا نجهل مصير الأولاد الذين أنجبتهم في مصر النساء الأجنبيات المستعبدات.

ويبدو في هذه الظروف ، ان العبيد قد تفاوت عددهم وفاقاً لمتانة وطبيعة علائق مصر بالخارج . ولكن هذا العدد لم يبلغ يوماً نسبة مرتفعة اذا ما قيس بمجموع السكان . وكان امتلاك العبيد دليل يسار ومجبوحة لم يحدث ان توفر عملياً للطبقات الاجتماعية الدنيا ، اذ ان وجود العبيد ، عند مثل هذه الطبقات ، مما يثير الشبهات كما تكشف عن ذلك بعض التحقيقات حول نهب المدافن .

وكان الملك نفسه سيّد غالبية هؤلاء العبيد الأول يحتفظ بالقسم الاكبر منهم ويستخدمهم في خدمة البلاط او في أعمال العناية بالاملاك العامة او في أعمال المناجم والمقالع الشاقة . ولا شك في ان بعض الممتازين منهم قد عينوا في فرق المرتزقة وان غيرهم قد شقوا طريقهم في وظائف الادارة بعد ان أسندت اليهم في البدء اعمال الترجمة : فحادث يوسف مثلاً ليس بالبعيد البعيد عن الحقيقة .

ولكن الملك قد وهب بعضهم ايضاً للمقربين اليه وخصوصاً لمحاربيه فجعلهم بذلك يهتمون بمغانم النصر . وقد ادى عمله هذا الى توزيع العبيد على طبقات المجتمع المصري المختلفة لانهم ما لبثوا ان استحالوا مواد تجارية تباع وتؤجر وتقرض . هنالك بعض الروايات عن عبيد يهربون فيطاردهم رجال الامن ، ولكننا نميل الى الاعتقاد بان الهاربين هم من عبيد الملك لان اصحاب الاملاك الخاصة عزل من السلاح امام الخسارة والسرقة كما هي حالهم امام الاعتداء على ممتلكاتهم الاخرى . وهنالك بعض الامثلة النادرة عن تحرير العبيد التي يمكننا الجزم في طوعيتها .

هذا كل ما يمكن قوله حيال هذا الموضوع . ويجوز لنا بالاضافة الى ذلك التأكيد ان قسمة العبد ، المرغم على العمل تحت تهديد العصا الدائم ، ما كانت لتختلف عملياً عن قسمة الفلاح نفسه . وهو لم يتصف قط بصورة مجتمعية مميزة ، وما لبث ان امتزج وانصهر في مجموع السكان بالرغم من تميزه اصلاً بلغته ودينه واخلاقه وربما بصورته الطبيعية ايضاً .

الاسرة : المرأة

الاسرة نطاق مظلم آخر . في الشعر المصري يدعو الشاب حبيبته « اختي » كما تدعوه هي بدورها « اخي ». ودرج على ذلك كل من الزوج والزوجة . فهل يُستنتج ان القاعدة كانت في زواج الشقيق من شقيقته ؟ انقسمت الآراء حول هذا الموضوع. فالذين يرتأون الايجاب يستندون الى مثل اوزيريس وايزيس في الميثولوجيا المصرية والى اقدام الملوك ، في بعض السلالات على الاقل ، على التزوج بالفعل من شقيقاتهم. اما القائلون بالنفي فيجيبون ان الحرص على نقاوة الدم في اسرة الهية قد يبرر مثل هذه العادة الغريبة وان التسميات المجازية واردة في جميع اللغات . ولا تزال ابواب هذا الجدل مفتوحة على مصراعيها .

ويبدو ايضاً ان الاسرة المصرية موسومة باعراف تحل المرأة في مركز مرموق بل في مركز الصدارة احياناً . فغالباً ما انتسب الابناء الى امهاتهم انتسابهم الى آبائهم . واذا ما توفي زوج ، وليس بين ابنائه من بلغ سن الرشد ، انتقلت سلطته الى امرأته حتى في علائق الاسرة بالدولة .

وقد عرفت رسمياً ، لا سيما بعد الامومة ، « بسيّدة البيت » ، متمتعة بكل ما في هذا التعبير من مدلول قانوني ، وذلك بالرغم من ان البيت مصدره الزوج . ولكن الشك لا يزال يحوم حول تحديد ذلك في الزمن او التعريف عنه بوضوح .

والادلة على ما يعارض ذلك ليست بقليلة . ويبدو انه قد عمل احياناً بعقد زواجي يحدّد مساهمة كل من الزوجين المادية ويحتفظ لكل منهما بملكية ما يقدمه . وقد سمح بتعدد الزوجات الذي درجت عليه دون شك بعض طبقات المجتمع المتنعمة بالغنى التي تستطيع تحمل ما يجر ذلك من نفقات : فقد رزق رعمسيس الثاني مثلاً اكثر من مائة وستين ولداً . ولعل مركزاً شرفياً مرموقاً اعطي لاحدى الزوجات التي نعجز عن تعيينها بالضبط . وبالاضافة الى هذه الزوجات الشرعيات اتيح للرجل ان يحتفظ لنفسه في منزله ببعض السراري . وعلى نقيض ذلك كان تعدد الازواج محرماً على المرأة التي يؤدي بها زناها الى القتل حتى ولو لم يقبض عليها بالجرم المشهود . ولكننا نجهل ما اذا كان على المحاكم ان تتدخل دائماً في هذه الحالات .

اجل ان في الادب الخيالي الكثير الكثير من الروايات التي تلعب فيها المرأة دوراً شديد البعد عن الفضيلة، وهي إمّا لواذع اصطلاحية واما انتقام الحقيقة والواقع من تشريع ظالم اعرج. ولنعترف هنا ايضاً بجهلنا المطبق، لا سيما ونحن نرى بازاء هذه الروايات، التماثيل العديدة لزوجين جالسين او واقفين جنباً الى جنب وقد تشابكت ايديهما او القيت يد الامرأة منهما على كتف الزوج ، مما يدلّ على ان الموت نفسه لا يفصل بينهما . غير ان للفن ، وللفن المدفني بنوع خاص ، ما للادب نفسه من مصطلحات .

ويجدر بنا هنا ، دون رغبة منا في التعميم والشمول ، ان نلفت الانتباه الى الدور السياسي الذي لعبته في بعض الظروف نساء معينة من السلالة المالكة اشهرهن على الاطلاق الملكة حتشبسوت في اواسط الالف الثاني . وكذلك ، في القرن الثامن قبل الميلاد ، خلفت بعض « عابدات امون »، في السلطة الروحية والزمنية على السواء، رؤساء كهنة امون الذين لم يتح لزوجاتهن معهم ، لاجيال واجيال ، ان يحتلن مركزاً يذكر . فيمكن القول ، على وجه التأكيد ، ان مصر القديمة لم تنظر ، مبدئياً ، الى المرأة نظرتها الى كائن ادنى، ولعل عزوفها النسبي عن الامور العسكرية وعدم اهتمامها بها يفسّر لنا خير تفسير هذه الغرابة الخاصة .

الولد والاحصائيات البشرية

نحن نجهل كلّ شيء عن التشريع في موضوع الاولاد ولكن الاخلاق تتراءى لنا بشيء من الوضوح . وجب ان يكون للمصري ابن يؤمن له الدفن بعد موته وفاقاً للطقوس واعراف الجنائز ، إذ يجب ان تدوم الاسرة جيلاً بعد جيل . لذلك يتحتم على الابن ، اذا ما بلغ سن الرجولة ، ان يقوم بدور رب الاسرة حيال امه الارملة وشقيقاته . غير ان ولادة الذكر التي من شأنها ان تؤمن الاعقاب لم تؤد يوماً الى التضحية بمن يولد بعده من اخوة او اخوات . وقد لاحظ الاغريق ببعض الدهشة ان

المصريين يرضون « بتربية » جميع الاولاد . ونفهم من ذلك ان المصريين لم يدرجوا شأن الاغريق ، على « عرض » المولودين حديثاً ، اي على اهمالهم وتركهم يستهلّون بين نفايات الحياة المادية .

وبالفعل فان العطف على الولد كولد صفة من احب صفات الحضارة المصرية ومن اكثرها ندرة في الحضارات القديمة . فهل هو دمية من نوع الحيوان المنزلي الصغير يطفح بحيباة قطرية نضيرة ، ام انسان المستقبل ، اي وعد يجب مساعدته على التحيز في تفتح وجوده . ان الافتراض الاول اقرب للصواب لان الفرد لم يكن له كبير شأن او قيمة . ولكن لا نتوقفنّ عند هذه التفاصيل والفروقات الدقيقة . فيكفي ان نعرف ان الفن المصري كثيراً ما طرق موضوع الولد بحيويته والعابه وعطفه والعطف عليه . ويكفي كذلك ان نعلم ان النصوص كثيراً ما تصف مسرات الطفولة وتعتبر احياناً بقوّة مؤثرة جداً عن الافراح التي تنسي الوالدين عناءهم ومشقتهم .

كان من شأن خصب البلاد ان يزيل شبح القسوة الفظة التي فرضتها فرضاً ، في غير مكان ، طبيعة اقل سخاءً . ومن المؤكد ايضاً ، بالرغم من غزارة المياه وعذوبتها ، ان الوفيات بلغت نسبة مرتفعة . ومع هذا فلا شك ان المعنيين بامر الاحصائيات البشرية قد قدروا احياناً حراجة الموقف وواجهوا بعض المعضلات الاقتصادية : فمهما بلغت ارض النيل من خصب مغذّ ، لم يكن بمكنتها ان تتسع لهذا التكاثر البشري المتزايد . كانت الادارة في وضع يمكنها من استدراك الخطر ، إذ ان القانون يقضي ، ولو نظرياً ، بالتصريح عن كل ولادة هي لها بمثابة فم جديد لا يجوز لها ان تدعه يوماً يصرخ من الجوع . لذلك كلما استعادت السلطة الملكية قوتها وشعرت بواجباتها وقضت على خطر الفوضى ، اخذت على نفسها اعمال تصريف المياه والري رغبة منها في استخلاص اراض زراعية جديدة من المستنقعات والرمول . لذلك فان كل عهد ازدهار وعظمة من عهود مصر القديمة قد تجلى بتوسيع رقعة زراعة القمح في الفيوم على حساب بحيرة ميريس ، وهي هبطة طبيعية فسيحة الارجاء ، الى الجنوب الغربي من الدلتا ، تنتهي اليها مياه فيضان النهر . اما في عهود الانحطاط فتغير الرمول على المنطقة نفسها وتكتسحها النباتات المائية . ولذلك فان رسماً بيانياً لمستويات البحيرة وشواطئها المختلفة في العهود المتعاقبة — فيما لو امكن وضعه — يصوّر التطور المتوازي في نظام المملكة وازدهارها وسكانها ، لان هذه الظواهر تعود ، في زمن واحد ، الى مجموعة منسجمة واحدة .

الاتجاه المحتوم الى الطبقات الوراثية

لما كان الصالح العام يستتبع سلطة ادارية مطلقة مثالية ، اصبح من المحتوم ان تتجه الادارة ، رغبة في تبسيط مهمتها ، الى تقسيم المجتمع ، المنتظم رتباً وفرقاً ، الى طبقات وراثية تؤلف الاسرة لها إطاراً طبيعياً . فاذا ما توفقت الى ذلك ، وجدت معضلة الاستفادة من الكفاءات ، وهي مستعصية بفعل

تجددها المتواصل ، حلاً يكاد يكون آلياً . وهكذا يتم تلقائياً تأمين ملء الفراغ في الحرف والمهن ولا يبقى سوى ايجاد العمل لمن هم أصغر سناً .

ولكن هذه النزعة لم تفض قط الى جمود شامل . فهي ، بدلولها هذا ، وبفعل تجاوبها ومنطق النظام الضمني ، قد ادت الى نتائج عملية ، فنحن نرى ، في مراحل تاريخ مصر القديمة المختلفة ، امثلة اجتماعية شبه ثابتة تسيطر عليها الوراثة سيطرة تامة . كان الأب ، بفعل الغريزة ، يكيف الابن على صورته ويطلعه على أوّليات معرفته وفنه باشراكه في عمله وينقل اليه بسهولة المهنة المدونة باسمه في السجلات الملكية كما لو كان ينقل اليه ملكاً عائلياً خاصاً . واذا ما اتفق ، من جهة ثانية ، ان لمس فيها بعض الفائدة ، كان من السهل عليه ، بموافقة الادارة ، ان يؤجرها او يبيعها . ولكننا نعتقد بأنه ما كان ليقدم على ذلك اذا تيسر له ان يحلّ محله فيها احد ابنائه أو أنسبائه . وهذا ما يفسّر ، في جميع العهود ، رسوخ وركانة المجتمع المصري . واذا أغفلت المصادر في غالبيتها ذكر هذه الوراثة المفترضة والمقدرة ، فان الكتابات المدفنية ، التي تشدد بفخار وكبرياء على انتساب الميت الاجتماعي ، لا تترك اي مجال للشك حيال هذا الموضوع .

ويجب لفت النظر الى اننا نستخلص وجود بعض هذه الامثلة الاجتماعية استخلاصاً فقط . فالتجار مثلاً وسكان المدن على العموم يكتنفهم الغموض الشامل لأن المدن ، ولا سيما مدن الدلتا العديدة التي كانت تجيش بحركة تجارية ناشطة ، امنع من ان يدركها البحث والاستقراء بعد ان غاصت ، منذ عشرات القرون ، تحت طبقات الاوحال الرسوبية المتراكمة . ويصح القول نفسه عن المقابر التي قد يسفر التنقيب فيها ، فيما لو امكن التنقيب ، عن الكثير من النقوش والرسوم والكتابات الكاشفة . ومن المدهش ان الأدب المصري لم يتعرض قط عملياً لامور سكان المدن ، ولعل مرد ذلك الى ان الادب يتوجه اساساً الى العظماء المقيمين في اقطاعاتهم المتميزين باحتقار هؤلاء السكان وجهل كل شيء عنهم ، لا سيّما وان نفوذهم الاجتماعي كان يقف عند مداخل المدن .

الأمثلة الاجتماعية : الفلاح

لذلك كان علينا ان نقصر الكلام على عدد من الامثلة النموذجية التي حيّزها الفنانون والكتاب المصريون نهائياً بالرغم مما فيها من صفة اصطلاحية .

اما المثال الواجب رسمه قبل غيره ، بسبب ديمومته وشموله ، فهو الفلاح ، المثال الاول للمصري وللسواد الاعظم من المصريين في كل جيل . فهو فلاح قبل أي شيء آخر ، بالرغم من توليه اعمالاً اخرى مختلفة في بعض الظروف : تمهيد الاراضي ونقل الأحمال على ظهره او الاشتراك بجر الثقيل منها في صفوف طويلة من امثاله . يتوقف انتزاع المحاصيل المغذية من التربة السوداء وحياة مصر نفسها وبهاء حضارتها على عمله خلال الفصول المتعاقبة ، وفاقاً لفيضان النهر وانخفاضه .

ولـكي نتمثل حالة الفلاح ، يهون علينا ان نرسم وجهي لوحة مزدوجة تتباين منها الظلال والانوار ، فالمصادر المصرية ، ولو تعاصرت ، تدعو الى ذلك .

كان فدادياً في الامبراطورية القديمة ، وما زال فدادياً ، عملياً ، حتى اذا بدا حراً فيما بعد ، من الوجهة القانونية ، لأنه اليد العاملة الضرورية التي لا يبقى للأرض قيمة بدونهـا . فهو مرتبط « بحقول الفرعون » والمعبد – وقد شملت مصر بكاملها في بعض الاحيان – او ان عمـله يعطى ويباع مع الاملاك التي لا يستطيع ان يهرب منها . اجل انه يملك بيتـاً شيدته يداه من لبن وعوارض خشبية حين اقدم على الزواج ، كما يملك حديقة وبعض الطيور الداجنة. ولكن الارض الصغيرة المؤلفة من بيته وداره وحديقته لم تكن سوى هبة الغاية المبيّتة منها احكام ابقائـه في الارض التي يعمل فيها تحت سلطة المتولي عليها . وقد يكون الملك ، في بعض العهود ، قد آثر اعتباره مزارعاً يستثمر على هواه حقلاً يعادل حقل جاره من حيث المساحة ، ولا شك في ان ذلك استتبع تأجيره بعض الحيوانات وبعض الادوات الزراعية . ولكن قسمته المادية لم تتغير قط ، موجّهاً كان عمله ام حرّاً. فهو لا يزال يرزح تحت كاهل السخرة التي لا بديل عنها لاعمال السدود والاقنية . ولا يزال الحق بمصادرته قائماً لصالح الادارة المدنية او العسكرية . كما لا يزال سيّده يقتطع حصصه دون هوادة ، إما مباشرة ، إما عن طريق اقتسام المحاصيل او بدلات الاستثمار او الضرائب . وتميـل النصوص الى التشديد على تجاوزات الموظفين في سلطتهم وصلاحياتهم . وأشهر هذه النصوص « هجاء المهن » الذي يعود ما يصفه الى عهد الامبراطورية الوسطى . وبعد ان يعدد الاضرار التي انزلتها بالمحاصيل الحشرات الطفيلية والجرذان والطيور والحيوانات البرية واللصوص ، نراه يفصل بقريحة تصويرية ضربات العصي يكيلهـا للفلاح مرافقو جابي الرسوم وضروب قسواتهم ومظالمهم : « حينئذ يضربونه مطروحاً على الارض ثم يوثقونه بالحبال ويلقون به في القناة فيغوص في الماء ورأسه الى اسفل ويحرّك يديه على غير هدى . ثم توثق امرأتـه بالحبال امام ناظريه ويكبّل اولاده بالسلاسل . فيتخلى عنه حيرانه ... »

قبالة هذه اللوحة التي تثير الشفقة ، نستطيع ان نشير الى تهديدات الملك المتكررة لمأموريه والتحقيقات المشدّدة يأمر باجرائها والعقوبات ينزلها بالمخالفين والعدل يوزعـه بنفسه . ولكن هذه الاجراءات التي تستحيل ، منذ اواخر الالف الثالث ، مجرّد مادة للترديد ، تفقد فعاليتها وثقة السكان بها. وللحصول على الوان اكثر نقاءً وجلاء يترتب علينا ان ننظر الى رسوم جدران المدافن . فهي ايضاً تصف بقريحة حادة افراح الحياة الريفية واعمالها على السواء وتستعيد امامنا الظلال الوارفة والمياه العذبة وتعبر عن حرارة فرق العمـل التي تقوم ، على الحان المزامير ، بالحصاد او بدوس العنب . والى جانب الاشخاص ، كتابات تكرر كلامهم الرشيق والمرح الذي لا يعرف للمرارة معنى . الحصادون ينشدون : « عملنا هو مـا نحب » . ثم يسيطر على الجميع جوّ من المزاح والمداعبة . وبعد الفراغ من العمل يستسلمون للراحة يجرعون خلالهـا الجعة فرحين بالعاب اولادهم امامهم . ويبدو كل منهم راضيـاً عن قسمته وسعيداً بان يلفت ،

بمهارته واخلاصه انظـــار سيده الذي يوجّـه نشاطاً ضرورياً لسعادة الجميـــع .

واذا نحـن خيّرنا ، تبدو اللوحة الاولى أقرب الى الحقيقـة ، فهذه المدافن المزدانة بالمشاهد الريفية انما هي مدافن العظماء المتعامين عن آلام خدامهم ، والاطار المثالي لهـــذه الكتابات الراعوية انما هو حقول العـالم الثاني . وقد ذهب بعضهم الى وضع مثـل هذه الأغنية على أفواه حاملي أسيادهم : « نؤثر المحمل الملآن على المحمل الفارغ » . ولكن « هجـاء المهن » من جهته يدعو الى الانتفاض . وكان من شأن هذا الشقاء ان يفضي طبيعيـــاً الى الثورات ، غير ان هذه الثورات لم تتميز مرة واحدة بالشمول ، كما ان حوادث الهرب نفسها لم تتكرر الا نادراً . وهل هناك من خيـــار بالمعنى الصحيح ؟ فليس بمكنة الفلاح ان يلمس شقاءه الا بمقارنة قسمته بقسمة غيره من الفلاحين التي لا يعلم عنها شيئاً . الآلهة أنفسهم هم الذين وضعوا النظـام الذي رزح الفلاح تحت وطأته المادية ، وهذا النظام في نظره لا يمسّ . لا شك في انه حاول المطالبة بحقه في هذه الدنيا ، ولكنه سيحصّله على كل حال في الآخرة ، بيـــنما سيلقى العقاب فيها ذلك الذي حرمه منه . وقد دفع به كل هذا الى السلبية والاستسلام ولم يبق له الا ان يستمتع بتلك الافراح العادية التي لا يمكن لأحد ان ينتزعها منه : أفراح الطبيعة الهادئة وأفراح حب الأسرة وأفراح الصداقات بين أمثاله . ونرى ، بعد كل هذا ، ان وجهي اللوحة المزدوجة يتكاملان دون تعارض بالرغم من تباين الالوان فيهما ، وان تقاربهما وحده هو الذي يحدد ويقرب الى الفهم ميزة من أخص مزايا مصر القديمة ومن اكثرها تأثيراً . فلم يتح قط لعظماء هذا العالم ، في غير مكان ، ان يتصرفوا بهذا القدر العظيم من الادوات البشرية الناشطة المطواعـــة والهادئة والمتواضعة والمتجلّدة . فليس ابعد ، في مصر القديمة ، من مفهوم الرجل الحر والشخص المجدّ الذي يتلقى مساعدة الجماعة لتكون له هويته ، لا لينصهر في الجماهير .

العامـــل

يمكن ان نستخلص بوضوح كاف أمثلة اجتماعية اخرى .

يلفّ « هجاء المهن » وغيره من النصوص جميع العمال بمـا يماثل شقاء الفلاحين ولا تهمل الاحصاءات المؤثرة لا مهنة صغيرة ولا حرفة يدوية : الحلاق يستدرج الزُبن في الأزقة والحداد يلتزم « فوهة الكور » وينشر الروائح الكريهة « اكـثر من بيوض السمك » والحـكاك الذي « حقله الخشب » و « معوله الازميل » والنحـــات والملاّح والحائك والخراز وغيرهم ينهكهم عمل سواعدهم ويتضورون جوعاً او يكادون يتسوّلون .

ان اصحاب الحرف ، في الواقع ، اكثر تميزاً من الفلاحين . اما اولئك الذين يمارسون مهن الساحات العامة فيختلطون بعامة الشعب ، والذين يحكم عليهم بالاشغال الشاقة تستثمر عقوباتهم افظع استثمار .

لا شك في ان العمال المرتبطين باشغال المعابد والملك قد لاقوا معاملة اقل سوءاً ، فهم يقصدون المخازن الطافحة بالمواد ويتسلمون منها اجورهم في مواعيد منتظمة ، مأكلاً وملبساً . ولعلهم ،

بالاضافة الى ذلك ، انتظموا جماعات متجانسة واستخدموا ما لديهم من وسائـــل للضغط على اصحاب الاعمال . ولدينا امثلة متأخرة عن تهديدات بالاضراب ساعدتهم على الفوز بمطاليبهم . ومثل هذه الحوادث مما يثير الشك حول النشاط الذي تعزوه الرسوم اليهم لا ســيما في اعمالهم الزراعية .

وكان بودنا ان نتعرف الى قسمة اولئك العمال الاختصاصيـــين المتميزين الذين جمعوا رصيداً مدهشاً من التقنية فاحلّوا مستوحاتهم في مصاف المصنوعات الفنية الرفيعة . فهل حظوا بالتقدير الذي هم جديرون به ؟ وهل نعموا بتكريم المجتمع لهم او هل كوفئوا مادياً مقابل بهجة الجمال يوزعونها ذات اليمين وذات اليسار ومقابـــل الخلود يؤمنونه للمقتدرين من زبنهم ؟ من المغالاة والتهور نفي ذلك اطلاقاً لان بعضهم بلغ الثروة والجاه بفضل براعتهم . وقد بلغنا اسم الصانع نفسه في بعض الاحيان النادرة النادرة . ويبدو ان عهد امنوفيس الرابـع — اخناتون قد تجاوز كلّ عهد غيره في رفع المستوى الاجتماعي لا سيما للنقاشين . ولكنه عهد قصير الامد اذا ما قيس بالتاريخ المصري المتطاول في الزمن . وفي اكثر الاحايين لا تحول كفاءات الفنـــان النادرة ونجاحاته الباهرة دون غمره ، كعامـــل يدوي عادي ، في جماعات الشعب المجهولة . ولكن حضارات قديمة كثيرة قد ارتكبت في هذا المجال ، قروناً طويلة ، الاخطاء نفسها التي ارتكبتها الحضارة المصرية .

الجندي

كان اسهل على الجندي ان يبلغ الشهرة . فكثيرة هي الظروف في ساحات الوغى التي تتيح للفرد ان يفرض بطولته فرضاً . ولكننا لا نستطيع التأكيد مع ذلك ان بمكنة محارب الرتب السفلى في مصر ان يتعالى ويبلغ المراتب التي تولبـــه النفوذ وتخوله حق القيادة . وهنالك نصوص تثبت تدرج بعض العسكريين المبرزين في سلك الجندية ، غير ان واحداً منهم لم ينطلق من الرتبة الدنيا بل هو ينحدر اساساً من اسرة تحتل مكانة اجتماعية مرموقـــة وينتقل يافعاً الى المدارس الحربية التي تجنّبه ، منذ دخوله اليها ، الاختلاطات المحطة من شأنه . اما الانطلاق من رتبـــة الجنود العاديين ، وهو دليـــل الانحدار الوضيع ، فيكاد يحتم الغمر والاغفال .

وقد سبق ورأينا ان الروح العسكرية لم تنتشر قط بين افراد طبقات الشعب الدنيا لان مزاجهم السلبي لا يصلح ان يكون حقلاً خصباً لاستثارتها فيهم لا سيّما وان الانظمة الدينيـــة والادارية السائدة قد شجعت فيهم هذه السلبية وغذتها . ولم تشذ عن هذه القاعدة ، في بعض العهود القصيرة ، سوى امثلة نادرة لا يجوز ان نغالي في اهميتها ونشمل بها المجتمع كـــله . ويبدو ان الفلاح لم يبرهن ، في خدمته العسكرية ، عن اهلية تذكر إذ ان مثال الجندي ، عنـــد الفراعنة ، اي ذلك الضابط الذي تأتي الوثائق العديدة على ذكر اجداده ، لم يكن مصرياً بـــل غريباً ومأجوراً .

لم يعجب الرأي العام بهذا الجندي بل شعر نحوه بالخوف والازدراء . ولم يكن ابن الشعب ليرى نفسه فيه لا سيما وان الجهود لم تبذل لايجاد هذا التقارب بينهما . ولم يعرف الجيش ، على ما نعلم ، اي تخالط اذ كانت وحداتـه متجانسة من حيث قوميات افرادها . امـا اذا حصل التخالط ، خارج الجيش ، فيكون ذلك نتيجة غير مباشرة لاسلوب تمشى عليه الادارة تأميناً لدوام خدمات هؤلاء الغرباء بحؤولها دون المطامع التي تثيرها فيهم ثروة البلاد .

فكان الملك يرعى المرتزقة باقطاع كل منهم ارضاً ، فيعنى بزراعتها واستثمارها تأميناً لحاجاته وحاجات عائلتـــه . وقد افضى ذلك ، في عهد البطالسة الى « مستعمرات المهاجرين » . وفي عهود سلالات سايس، بلغ عدد الجنود ، على ذمة هيرودوتس ، ٣١٠٠٠٠ وقد اقطـع كل منهم ثلاثة هكتارات وربع الهكتار في الدلتا ، وحق لمن انخرط منهم في الحرس الملـكي ان يتسلم حصصاً غذائية سخية . فليس من المعقول ان يجيء كل هؤلاء من الخارج . وليس من المعقول خصوصاً ، ألاّ يكونوا من اصل مصري ، شريطة ان نعود جيلاً او اجيالاً الى الوراء .

فاذا كان الملك يحتفظ مبدئياً بحق تملك هذه الاراضي ، واذا كان من حق ادارته بالتالي ان تبقي فيها عائلات الجنود ، ما دام هؤلاء صالحين للخدمة العسكرية فقط ، اصبح من السهل رسوخ قدم الوراثة التي كانت تؤمن مصالح الطرفين . فاذا خلف الابن أباه كجندي ومزارع ، احتفظت العائلة بقطعة الارض وأمّن الجيش بديلاً عن رجل أصيب بمرض او تجاوز سن الخدمة . وهكذا فالمصري الذي يقيم نهائيـاً في مصر يصبح بعد حين اصلاً لفروع كثيرة ويتمصّر احفاده رويداً رويداً فيستحيل ، بعد ذلك ، التمييز بينهم وبين المصريين الاصليين المنخرطين في الجندية الخاضعين لنظام مماثل . وتتنظم مع الزمن طبقة « المحاربين » الوراثية التي ألمح اليهـا كتبة الأغريق . ولكن يرجح ، قبـل العهد الذي تصح فيه شهادة هؤلاء ، ان الجنود اقطعوا الاراضي منذ السلالة الثالثة عشرة وان المرتزقة تضخم عددهم منـذ اواخر عهد السلالة الثامنة عشرة .

ولا حاجة بنا لأمثـلة اكيدة حتى نتصور نتيجة هذا النظام المحتومة . فوراثة الاراضي المقطعة لم تكن سوى مرحلة من مراحل التطور ويكفي ان تخف وطأة المراقبة الادارية حتى يستحيل استثمار الاراضي ملكية فعلية قابلة النقل بالهبة او بالبيع ، كما يطيب للمالك ، وتزول مع الزمن فريضة الخدمة العسكرية التي كانت في الاصـل الشرط الاساسي لاقطاع الارض . وتتحتم بالتالي العودة الى البدء كلما مسّت حاجة الملك الى المحاربين الجدد . ان المصادر المتوفرة لدينا ليست من الوضوح والكمال بحيث نستطيع معها الجزم بان مصر قد قطعت هذه الدورة بكاملها ولكن منطق الحوادث يجيز ذلك .

الضابط

من الثابت ان طبقات الشعب المصري الميسورة لم تقدم للفراعنة جميع ضبـاط الجيش والاسطول، لا سيّما في جميع العهود ، لان المرتزقة قـد احتفظوا احياناً

برؤسائهم الأجانب ، مما عرض البلاد في بعض الفترات للقلاقل والاغتصابات . ولكن الضباط قد جاؤوا ، دائماً تقريباً ، وباعداد كافية ، من أسر هي في خدمة الجيش او الادارة الراهنة. كثيرة هي الكتابات المدفنية التي تشير باطراء دائم الى المآثر العسكرية واعمال البطولة والتضحيات ، غير ان توزيعها في الزمن ليس متساوياً لأن السلطنة لم تهتم على الدوام للشؤون العسكرية . ولم يكتمل مثال الضابط في المجتمع المصري الا في عهد الامبراطورية الحديثة بنوع خاص وهي التي تولت تحرير البلاد اولاً ونهضت بالفتوحات في آسيا ثانياً . وقد استقر هذا المثال في الاذهان بعد هذا التاريخ بسبب الحاجة الدائمة الى الدفاع عن مصر وصد الغزوات عنها

ويشدّد « هجاء المهن » على ما يلازم مهنة الضابط من مشقة . في المدرسة الحربية ، وفي المراتب الدنيا نفسها ، لجأ الرؤساء الحازمون الى العصا لتلقين الشاب خفة الحركة والانتباه . يضاف الى ذلك عناء الأسفار الطويلة القسرية في المناطق الريفية ، والأمات تعترض العربات ، والجروح ، وغير ذلك مما هو أدهى . ولكن هذا النص يغير وجه الحقيقة هنا شأنه في تغيير وجه حقيقة مهن اخرى كثيرة ، لا بل يغضي عما فيها من تشويق ، أعني بذلك المكافآت الفخرية وغيرها ، وهبات الفرعون ، وتقاسم الغنائم المادية والبشرية ، والأوسمة عقوداً وأساور ، والتدرج السريع ، وخصوصاً التعيين في الوظائف المدنية ، او الحصول على الاقطاعات المحترمة ، عند بلوغ السن او الاصابة بعاهة ، وكلها تثير في النفس الرغبة والشهوة . وتعطينا الكتابات أمثلة لا تحصى على صحة ما نقدم . اجل لن يجسر اي مستاء على ان ينسب لسيده نكران الجميل ، ضمنياً ، بالكلام عن عوزه في شيخوخته . ولكن الوقائع هي الوقائع . ولن يحظى الملك بخدمة مخلصة الا اذا اعترف بجميل خدامه المخلصين . ويبين لنا مثل حورمحيب ان اقرب الناس الى الملوك واكثرهم حظاً وشجاعة كانوا يحلمون أحياناً بالمزيد من السموّ والارتفاع .

الكاهن

يبقى أخيراً اولئك الذين نعموا بثقافة ارفع . درجت العادة ان تبدأ الدروس منذ عهد الطفولة في المدارس الملحقة بالبلاط او بالمعابد حيث تحتل مادة الخط المركز الاول . ثم تتفرع بغية تلقين الطلاب المعارف الخاصة بالمهنة التي يعدّ الوالد ابنه لها ، ، وهي غالباً تلك التي اختارها لنفسه بين اثنتين : الكهنوت او الادارة .

ونتيجة لانهماكهم في نشاطات المعابد الدينية والزمنية على السواء، كرّس كثيرٌ من المصريين والمصريات نفوسهم لخدمة الآلهة . ولكن في هذا الجمع الغفير علمانيين عديدين بما فيهم فئات عامة الشعب المختلفة : الفلاحون مستثمرو « الارض المقدسة » ، وعمال المصانع الاختصاصيون والمعاونون على انواعهم ، حتى والراقصات والمغنيات والموسيقيات . ولم يحلّ ذلك دون تضخم عدد الكهنة انفسهم الذين توزعوا فئات كثيرة تختلف القابها وانظمتها ، وربما اعمالها ، باختلاف المعابد . وتعيين هذه المهام منوط مبدئياً بالاله اي بالملك ، ولكن المهام نفسها غالباً ما تصبح ،

مع الايام ، ملكاً للقائمين بها . وقد حدث ، في عهد الانحطاط على الاقل ، ان تقسمت هذه المهام حصصاً زمنية غاية في القصر – اجزاء من اليوم – واصبحت موضوع تجارة وبيع وشراء .

وقد يصح الكلام عن كهنوت نسائي قوامه « سراري الآلهة » أو « المعتزلات ». ولكننا نجهل كل شيء عن تربيتهن ودورهن في العبادة . ومع ذلك يمكن التأكيد انهن كن ينتخبن ، للمراكز العليا على الاقل ، في صفوف المجتمع الراقي ، بل في البلاط نفسه احياناً . وكانت الملكة مبدئياً ، منذ الامبراطورية الحديثة ، رئيسة الكهنوت النسائي المكرس لخدمة معبد الاله امون في الكرنك وتلقب « باليد الالهية » و « عروس الاله » او « عابدته » . وكانت تقوم مقامها عملياً تلك التي يمكن تسميتها رئيسة الكاهنات .

ويصح القول نفسه عن درجات الكهنة الذكور التي يرأسها في القمة « النبي الاول » و « اعظم الانبياء » ، وبكلمة ، رئيس الكهنة ، الذي عرف بغير ذلك من الالقاب . وكان في كل معبد رئيس كهنة يقوم مقام الملك الذي يعينه لهذه المهمة . وقد احتل بعض رؤساء الكهنة مكانة ضخمة وواسعة بفضل ما للاله الذين يديرون شؤون معبده من نفوذ وطيد وثروة طائلة . ومما لا شك فيه طبعاً ان واحداً منهم لم يتقدم على رئيس كهنة امون في الكرنك الذي افضى ضعف بعض الملوك الى رفعه الى مرتبة «مدير الابنياء في مصر العليا والسفلى»اي الى مرتبة رئيس الكهنوت الوطني الاعلى . والملكية ، كما سبق ورأينا ، تعرضت لخطر الاغتصابات على يد رجال الدين ولم تفلح دائماً في صدّه وابعاده.

وكثيراً ما وقع الخيار على رئيس الكهنة من خارج الدرجات الكهنوتية ، ولكنه اشرف مباشرة على سلسلة كاملة من « القراء » و « الاطهار » و « الآباء الالهيين » و « الانبياء » . وكان باستطاعة هؤلاء الكهنة ، المنتظمين فئات متميزة ، ان ينتقلوا من مرتبة الى اخرى ، غير ان تدرجهم يخضع لعوامل متعددة اهمها التملق للبلاط وصلة القربى بذوي المناصب الرفيعة. واليك مثلاً عن نجاح كهنوتي باهر احرزه احدهم في عهد رعمسيس الثاني : دخل احد ابناء « نبي امون الثاني » المدرسة في سن الخامسة ، اصبح « طاهراً » في السابعة عشرة ، و « اباً إلهياً » في الحادية والعشرين ، و « نبياً ثالثاً » في الثالثة والثلاثين ، و « نبياً ثانياً » في الثامنة والاربعين ، و « نبياً اولا » في الستين حتى مماته في السادسة والثمانين . وهذا مثل آخر يعود الى عهد متأخر : احد رؤساء كهنة امون يعلن باعتزاز وكبرياء ان ابنه البكر « نبي ثان » في معبده وحفيده « أب إلهي » ، ان لم يكن « نبياً رابعاً » ، بينما يرتبط ابنه الثاني بمعبد آخر .

هذه ، ولا ريب ، نجاحات وأسَر غير عادية زادت اتجادها في القوّة الادبية والمادية التي نعم بها كهنوت هو ادارة في آن واحد. فشكّل هذا الكهنوت طبقة اجتماعية شبيهة بطبقة الموظفين المدنيين . ولم يختلف الكاهن عملياً عن الكاتب . فهو ينتقى في الاوساط الاجتماعية نفسها ويربى التربية المدرسية عينها . وهو مدين ، في قوّته ، الى مثل أعلى واحد هو التنظيم القمين بان يؤمن

للشعب السعادة التي يهبها الآلهة بسخاء للدلالة عن رضاهم ، وهو اخيراً يجيش برغبة واحدة في اعتبار الوظيفة التي يشغلها ملكاً خاصاً لا خدمة عامة .

الكاتب

نصل ، مع الكاتب ، الى مثال سيد مصر الفرعونية الحقيقي بكل بقائه وجلائه . ولا يشدّد « هجاء المهن » ، بتلك المرارة ، على آلام المهن الاخرى واخطارهـا ، إلا لبرز ما تنطوي عليه مهنة الموظف من قوّة اغراء واجتذاب . وليس الشخص نفسه ، الذي يرسم هذه الصور السوداء ، إلا موظفاً صغيراً يحض ابنه على الاجتهاد ، وهو يقوده الى مدرسة البلاط ، منبت موظفي الادارة . وهنالك نصوص كثيرة تعرب عن هذا التوق نفسه باعجاب البسطاء دون ان تم عن حسد او تململ . وتجمع هذه النصوص على القول بقيام حالة راهنة يجب الاعتراف بحقيقة واقعها : « فالكاتب هو الآمر » كما جاء في كثير من هذه الكتابات .

تحرر الكاتب من السخرة التي اخذ يفرضها على غيره وابعد عنه شبح التعب الجسدي وضمن مؤونته من بيت الملك . فتوقف نجاحه على ذكائه وحميته دون غيرهما . وكان من الطبيعي ، في مثل هذه الظروف ، ان يحمل الامـــل في السعادة المرجوّة ، كلاّ من الطالب والمبتدىء ، على الابتعاد ، في عمر الطيش ، عن ملذات الرقص التافهة وعن المسكرات والمنكرات ، وعلى كشف اسرار الخط والحساب والادارة ومنافسة اترابه في الدرس والاجتهاد .

ويصوّر هذا المثال احسن تصوير ، منـذ الاسرة الخامسة في اواسط الالف الثالث ، تمثال « الكاتب المقرفص » الذي يعبر عن حدّة محسوسة في الانتباه عند قدوة الموظفين .

واذا ما حالف الجدارة حسن الطالع ، يرتقي هذا الموظف الوضيع في الدرجات الكهنوتية الى ان يبلغ اكثر المناصب ابتغاءً ، بفعل الجاه الذي تؤمنه ، واوفرها عطاء سخياً ، بما تستتبعه من مرتبات وهبات . وان لم يتيسر له ذلك ، يرافقه دائماً ، حتى في الدرجات الدنيـا ، شعور أخاذ باشتراكه الشخصيّ في سلطة لا حدّ لها وبتساميه على الجماهير بمراقبته الشاملة لاعمالها . وهو مبدئياً يتلقى التوجيهات حتى يوجهها للغير ، ولكن الملك ، عملياً ، ابعد من ان يضن عليه بالثقة واضعف احياناً من ان يعاقبه على تجاوزاته .

وكثيراً ما يتاح للكاتب المنتمي الى هذه الدولة الالهية ، بفضل وراثة الوظائف وفقدان فعالية آلة الحـكم المعقدة ، ان يستفيد منها استفادة مباشرة كبرى ، حالما يتراخى ، في القمة ، ذلك الحزم الذي تبقى المبادىء الاخلاقية بدونه حرفاً ميتاً .

وبذلك تكون الحضارة المصرية قد شُيدت لمجد الآلهة الاعظم ولمجد الفرعون ابنهم ورضيعهم وخليفتهم ، معتمدة مادياً على مجهود الطبقات الكادحـة التي أرهقتها بالواجبات ، ومستهلكة المزيد من الثروات بالرغم من سخاء الطبيعة في عطائها المتكرر . ولكن انانيـة الانسان الفطرية قد سخّرت منها الارضيات لصالح اولئـك الذين عملوا تحت ستار تلك القوى الالهية وباسمهـا ، اعني عظماء مصر الحقيقيين : الكهنوت والادارة ، الكاهن والموظف .

الفصل الثالث

المظاهر الدينية

ليست الحضارة المصرية مدينة الا بجزء من عظمتها لقوة الالتحام والمنطق – من الوجهة المثالية على الاقل – في نظامها السياسي والاقتصادي والاجتماعي . فقد تجلت قوتها الخلاقة ، بكثير من التأثير ايضاً ، في نطاقات بشرية اخرى .

ترتب علينا اكثر من مرة ، فيما سبق ، التنويه بقوة الفكرة الدينية في مصر القديمة . وكان هيرودوتس يعتبر المصريين « اكثر الناس دقة في التدين » قاصداً بذلك حرصهم الشديد ، حتى في العادي من اعمالهم ، على العمل بموجبات دستور العادات والمحرّمات الذي سنته تقواهم الملزمة. وهذا الاثبات يحتفظ بقوته حتى ولو رفعناه الى مستوى أعلى . ففي الديانة وحدها ما يبرر نظرياً تنظيم البلاد العام . وبما ان البلاد ملك للآلهة ، فهي تعيش لاجلهم وفاقاً للمبادىء التي وضعوها والاوامر التي تصدر عنهم يومياً .

١ – الآلهة

التعدد الاساسي

عدد هؤلاء الآلهة مرتفع جداً ولا حد لتنوع طبيعتهم . وبحكم الضرورة ، سعى اللاهوتيون في نظرياتهم ، اكثر من مرّة ، لادخال نظام ما على هذه الكثرة التي يكاد لا يحصرها عد . وحدث ، لا سيما لاسباب سياسية ، ان قاربوا التوحيد ان لم يتوصلوا اليه بالفعل احياناً . وقد حصل ذلك ، في حال حصوله ، مكرراً وخداعاً باخضاع الآلهة الآخرين لإله جُعل لهذه الغاية أعلى منهم شأناً وسلطاناً . ولكن هذه الطرائق لم تلق قط ترحيباً يذكر حتى ولو كانت السلطات عوناً لها ولم تحرز إلا نجاحاً محدوداً في المجتمع والمكان والزمان على السواء . فمن الجلي ان تعدد الآلهة كان أمراً اساسياً ولم ترض غالبية المؤمنين عنه بديلاً .

هل كان هنالك ، على الاقل ، فكرة مشتركة وراء هذا التعدد ؟ هل كان هؤلاء الآلهة

يتساوون في الانحدار من مبدأ أعلى ؟ يميل كثير من علماء مصر القديمة ، منذ مـا يقرب الأربعين عاماً ، الى اثبات ذلك ويحاولون ان يستشهدوا ، لهذه الغاية بلفظة « كا » التي جاءت على ذكرها نصوص قديمة قدم الاهرام : « هوذا انت ، « كا » جميع الآلهة ، تقودهم وتحكمهم وتحييهم » . ولكن هذه النصوص النادرة والغامضة لا تتيح الاجماع على تحديد مدلولها والانتهـاء منه الى ما يغرينا في اكتشاف مدلول ذات الالوهية . جوهر اساسي او سائـل هيولي تنصبّ عناصره في الاغشية المختلفة ، او مجموع القوى الفائقة الطبيعة ، او مبـدأ الحياة الكامن في الاطعمة ، او مبدأ التناسل ، او مجموع الصفات الطبيعية والادبية والعقلية التي تكوّن الشخص الكامل ، لا فرق كان هذا المجموع واحداً او متعدداً : هذا قليل من تحاديد كثيرة قدمها بعضهم . وكل منها يستند الى حدّ بعيد إما الى النظريات العامة وإما الى الاستعارات السهلة ، ويكفي ذلك وحده لان تحوم حولها الشكوك .

ومهما يكن من الامر ، من جهة اخرى ، فما كان بلوغ هذا التجريد بمكن الا لنخبة محصورة العـدد ، ولا يبدو ان هذه النخبة انهمكت ابداً ودائمـاً في بناء مذهب منسجم ومعقول . ولو حاولت ذلك ، لاصطدمت بواقع ديني برز قبلها مستقلاً عنها مستعصياً على جهودها التنظيمية . ولو وفّقت جدلاً الى مذهب مرضٍ ، لقابله المصري باللامبالاة وعدم الاكتراث .

الواقع والخيال في الفكرة الدينية

تعكس الديانة المصرية ، بوضوح لا مثيل له الا في الفن الذي تربطه بهـا صلة وثيقة ، بعض الخطوط الأساسية للسيكولوجيـة الجماعية . وقد يرتسم بعض هذه الخطوط ، بوضوح متفاوت ، عنـد الشعوب الاخرى . ولكن لمصر خطوطها المميزة .

ومن حيث ان الفكرة الدينية المصرية قـد نشأت ، كما في غير مكان ، من المعضلات التي واجهها البشر في علائقهم بالعالم المحيط بهم الذي تستبد حياته بحياتهم ، فهي قد انبثقت بديهياً من المـادة الجامدة ومن المحسوس ، مع بعض التفضيل للمرئيات . وهي لم تحد عن هذا قط ، مـع انها غالباً ما تعد بها ، يستهويها في ذلك خيال حاد . ولم يتح لها هذا الخيال ان تسكب الحيـاة في الاشياء لنفسها فحسب ، بأن اعطتها قيمة ارفع من قيمة الرموز ، بل قادها الى اعتماد التأليف والجمع كي تخلق من معطيات الواقع كائنات جديدة لم يدخل في خلد احد انهـا دون هذه المعطيات واقعية . ولم يلعب التجريد في كل هذا الا دوراً ثانوياً ، اذ كان يكفي ، لبلوغ الهدف ، بذل مجهود في تأويل الواقع المنظور والاستمرار في الاستفادة من معطياته بحيث يدخل ، في نطاق الاختبار العادي ، اغرب مـا يتعرض له الانسان وبيئته المباشرة من احداث وظواهر .

وفي سبيل عملية الخلق هذه ، وَفّـقَ المصري بين صور مختلفة متناثرة ، لانه كان يؤمن بالحياة في الصور . وبما ان الصورة منقولة عن حقيقة في الحاضر او في الماضي ، فهي تضاعف وجود هذه الحقيقة ، أو تعيد الوجود اليها كل مرة يعاد رسمها ، او طالما هي في حيز الوجود .

وهي في البدء ترتسم دون قصد ، ثم تتجسم وتعطي الحياة لنفسها . ولذلك فالحـــاق الضرر بالصورة انما هو الحاق الضرر بمن لا وجود له بدونها . وكانت هنالك طريقة اخرى للخلق ، في التسمية لفظاً او كتابة : فمقابلة إسميْ إلهين مثلاً كانت بمثابة جمعهما في واحد وكان من شأنهـا ان تفضي الى النتيجة نفسها التي تفضي اليها صورة من ينتمي الى جنسين مختلفين . وتتصل هذه الطريقة بفكرة الكلمة الخالق التي اعتمدها اللاهوتيون في تفسير تكوين العالم تلبية لنداء الاله الخالق . كما تتصل ايضاً بفكرة السلطة التي تمنحها ، على الاشياء والكائنات الحيـــة ، معرفة اسمائها الحقيقية ، وهي التي كثيراً ما لجـــأ السحرة اليها . ولكن هذه الطريقة ، على الاجمال، لم تؤد الخدمات التي أدتها الصورة ؛ منبت الفن المصري الوحيد ، او الاول على الاقل .

وبفضل الواقع من جهة،والخيال من جهة اخرى، توفر للفكرة الدينية امكانات خيار تكاد لا تحصى . ولكن يبدو ان نزعة تفاؤلية ، تلفت النظر بجدّتها ، قد وجهت هـذا الخيار . لا شك في ان المصري كان محاطاً بقوى كثيرة تبدو له وكأنها تناصبه العداء،او تهدده تهديداً فقط. وهو قد رآها بام العين وحاول تهدئتها . ولكنه ، عـــلى ما يظهر ، لم يرض قط بأن ينظر الى وجهها المخيف ، فحصر في نطاق ضيق ، على نقيض الحضارات الاخرى ، الهول والذعر اللذين اثارتهما فيه . فتمثل آلهته آلهة خير ، وغضبهم غضباً سريع الزوال . ولم يستطع أبالسته قط من توفير نصرة الشر . ولم يحدث في أي بلد آخر ، ان ادرك الانسان معنى الموت بهذا الجلاء وهذه الطمأنينة ، ناظراً اليه نظرته الى باب الحيـــاة الثانية الابدية . وهكذا فان الديانة المصرية قد سبقت الكثيرات غيرها في املاء عرفان الجميل على اتباعهـا وفي حمل الامل اليهم . ومن حيث هي علة ومعلول في آن واحد ، فانها قد اندمجت بكثير من التآلف في مجموع حضارة لا سبيل لادراكها اذا نحن اغفلنا ، ولو دقيقة واحدة ، ما ينطوي عليه الشعب في الفطرة من صبر جميل وانس لطيف ، والحضارة كما نعلم تعبير جماعي عن هذا الشعب .

حدود تشبيه الآلهة بالانسان

لما كانت اعراق الديانة المصرية ترتقي الى ماض سحيق ، فانهـــا قد احتفظت على مر الايام بالظاهرات البدائية ، وابرزهـــا بلا ريب عبادة الحيوانات .

ونحن نجد ، قبل بدء الازمنة التاريخية وتوحيد البلاد ، « شارات » المناطق المصرية المميزة مرسومة على المراكب والابنية التي تزين الخزفيات . وهي عبارة عن صور حيوانات او نباتات او أدوات مثبتة في اعلى الاعمدة الخشبية . وباستطاعتنا ان نتصور بسهولة تأليه حيوانٍ نافع او مرهوب ونباتٍ خيّر كالبطم او النخيل. ولكن كيف نتصور تأليه المترس والخاطوف والنبال وما الى ذلك ؟ ولنفرض انها رموز واصنام ، او ان لها أي تفسير آخر ، فمما لا ريب فيه ان لهذه « الشارات » مدلولاً دينياً .

ظهر التشبيه او التجسيد ، قبل عهود السلالات الفرعونية . ولكنه لم يفلح قط في ان يفرض

نفسه كلياً . ففي اوج الحضارة المصرية نفسه ، استلزمت صورة الاله ، على العموم ، تفصيلاً او صفة على الاقل يعيدان الى الذهن الرسوم البدائية غير البشرية ، شريطة ان يكون اصل هـذا الاله راسخاً في القدم ، وان يكون متصلاً بالآلهة المحليين . والشذوذ عن قاعدة استمرار الماضي هذه نادر جداً . ولكن اكثر الرسوم انتشاراً هي تلك التي عريت من كل عنصر بشري او تلك التي تمثل التغولات .

وفيما يلي مثل واضح يبين ، اكثر من اي تحديد ، تنوع الحلول المعتمدة وسرعة الانتقـال من حل الى آخر . بين الرموز البدائية قحف الثور الذي انتشر منفرداً في البدء . ثم أضيف اليـه المزهر فقام هو مقام الهيكل المعدني للمزهر . ثم اصبحت البقرة إلهـة المنطقة التي انتشر فيها . وبين الآلهات التي تمثلت بهذا الحيوان ، لاقت حاتور اوسع ترحيب حتى خارج إطـار هذه المنطقة . فنتج عن ذلك ان حاتور تمثلت دائماً بشكل امرأة لها اذنا البقرة ، او يعلو رأسها زوج قرون حيناً ، وقحف الثور والمزهر احياناً .

وقلّما صادفت عبادة النباتات والجمادات انتشاراً وحيوية ، لأن الحركة اعوزتها والحركـة دليل الحياة الاول . وعلى نقيض ذلك استمرت عبادة الحيوانات زمناً طويلاً حتى ولو اتصفت بالبروز آناً والانكماش آناً آخر . وفي عهود الانحطاط نفسها ، لم تمـل الى الهبوط ، بل بعثت حيويتها بكل قوة . ولا تفسير آخر للمكانة التي يحلها هيرودوتس فيها ، بعد رحلة الى مصر في أواسط القرن الخامس قبل الميلاد ، والتي تؤيدها جميع الكتابات القديمة اللاحقة . وكثيراً مـا يشير الكتبـة الاغريق واللاتين ، بدهشة واشمئزاز ، الى الاكرام يحاط بـه هذا او ذاك من الحيوانات ، وعقوبة الموت او الجزاء النقدي تفرض على من يخالف القانون ويستحل قتله ، والاحترام يؤدى الى ممثل الفصيلة الحيوانية المعتنى به في احد المعابد والى جميع حيوانات هذه الفصيلة بعد الموت . وليس من النادر ايضاً ان يلفتوا النظر الى ان حيواناً قد يكون مقدساً هنا وعدواً هناك . فالتمساح مثـلاً يكرم في منطقتي طيبة وبحيرة ميريس ويطارد ويقتـل ويستهلك في منطقة الفيلة . ومن الجلي ان هذه المتناقضات الظاهرة تلاقي تفسيرها في ما تتميز به محليـاً هذه الحيوانات الالهية .

وقد أيد علم الآثار شهادات المعاصرين هذه . فقد اسفرت اعمال التنقيب عن مقابر كثـيرة دفنت فيها وفاقاً للطقوس ، جثث محنطة كثيرة لحيوانات معينة : الهررة والكلاب والحبارى والصقور والاسماك .. المنتمية لهذه الفصيلة او لتلك الفصيلة الاخرى . ويبدو ان هذه الاعراف لم تنتشر الا في عهد متأخر . غير ان عبادة الثور أبيس في منف تعود الى السلالة الاولى على اقل تحديد . وقد تم العثور على مدافن ثيران هذه الفصيلة العائدة الى مـا بين القرنين الرابع عشر والاول قبـل الميلاد . ففي معبد سيرابيس الذي اكتشفه ماريت ، عثر على اربعة وعشرين مدفناً تتوزع في الزمن منذ رعمسيس الثاني حتى العهد اليوناني . كان هذا الثور الأبلق يُنصّب وفاقـاً لطقوس احتفالية ، ويعيش في معبده ، بازاء « فتاح » الاله العظيم الذي هو « بشيره »

و « صورته الحية » ، ويجيب ، باسم الاله ، على اسئلة المتعبدين ويتقبل التقـــادم ويشترك في التطوافات ، وعند موته ، يحفظ ويوضع في ناووس ويخضع لطقوس جنائزية تستمر سبعين يومـاً ثم يودع سرباً صغيراً بازاء اسلافـــه . وبالرغم من ان عبادة ابيس كانت اشهر العبادات طراً، فانها لم تكن الوحيدة من نوعها. فعبادة الكبش في منديس من اعمال الدلتا ليست دونها رسوخاً في القـــدم . ويتكلم قدماء الكتبة ايضاً عن ثيران منيفيس وبوخيس ، وقد ايدهم عـــلم الآثار في ذلك .

يتضح اذن ان التشبيه او التجسيد قد اصطدم بعقبات لم يقوَ على التغلب عليها وازالتهـا من دربه . غير ان المصريين قد درجوا باستمرار على ان ينسبوا للآلهة ما يتميز بـــه الانسان من شهوة للأكل وعاطفة وذكاء وافكار ويكيفوهم على صورتهم أدبياً وروحياً ان لم يكن مادياً ايضاً . وباكراً جداً ، جمعوا سوادهم الاعظم أسراً على النحو البشري لا سيما المثلث الذي قوامه اب وام وابن .

الآلهة المحليون : تعددهم وجمعهم

وليست هذه المثلثات من المعطيات البدائية . فالواقـــع الديني المصري السحيق يتمثل بعدد لا يحصى من الآلهـة المحليين الذين يُنظر اليهم كأسياد منطقة معينة . ولم تقتصر سيادتهم على امكنة معابدهم فحسب ، وهذا يصح لجميع الآلهة على السواء ، بل امتدت ايضاً ، اما منذ عهد تطاول في القدم ، واما بنسبة حقهم في التملك الى مصدر غير الهبة الملكية ، على الارض المجاورة للمعابد ، وعلى كل مـــا عليها من بشر وحيوانات واشياء . وتركت هذه التجزئة الاولى آثارها بالرغم من ضيق البقعة وانعزالهـا . وقد تقام عدة معابد للاله الواحد في رقعة محصورة الاتساع. ولكن ، في الواقع ، اطلق على كل معبد اسم خاص ، كما اتيح ايضاً، لشخصية اله كل معبد ، ان تبرز ، من وراء هـــذه السمّية السطحيـــة ، بواسطة لقب او تسمية او زاوية معينة او صفة لا يصح نسبتها الا له . وكان باستطاعة المؤمنين ، والحالة هذه ، ان ينوعوا تقواهم وفاقـــاً لتفضيلاتهم الشخصية او للعادة السائدة . وهم لم يبخلوا على انفسهم بذلك .

وقد توصل المصريون بعد لأي الى تخفيض عدد الآلهة المحليين بطرائق مختلفـة . فلجأوا الى المماثلة ، انطلاقاً من اوجه تشابه عرضية في غالب الاحيان . فالبقرة مثلاً لم تكن في الاصل ولم تبق قط الحيوان الرامز لحاتور دون غيرها ؛ ولكن حيثما وجد اله ترمز اليه البقرة ، سهل على حاتور ان تحل محله . ولجأوا الى التركيب والضمّ ايضاً فجمعوا المميزات والصفات والرموز المتقاربة او الواحدة . وقد اصبحت هذه الطريقة واسعة الانتشار واعتُمدت لكل الآلهـة على السواء . ولجأوا اخيراً الى توزيعهم مثلثات قد تختلف المناطق على تصنيفها او على تعيين الاله الرئيسي فيها. وهكذا يرجح ان حاتور قد اشتركت احياناً في بعض المثلثات كأم لهوروس ، ويقودنا الى هذا الاعتقاد اسمها نفسه الذي يعني « مسكن هوروس » . ولكنها اعتبرت زوجة

له على الاجمال ، متوارية امامه ، في ادفو ، جنوبي طيبة ، في المقاطعة الثانية من مصر العليا، ومتقدمة عليه ، في دندره ، شمالي طيبة في المقاطعة السادسة .

وليس من شك في ان هذه المحاولات تعكس الصراع على النفوذ والمنافسة في السياسة بين جماعات بشرية تنتصر كل منها بقوة السلاح لالهها الخاص . قد سعى بعض علماء الآثار المصرية الى استعادة وجوه ماضي مصر السحيق بالمقارنة بين تقدم بعض العبادات المحلية وتقهقرها ، ونجاح اتباعها وفشلهم . ولكن التوصل الى نتائج موضوعية ، انطلاقاً من هذه الطريقة ، يستوجب ، قبل كل شيء آخر ، ان يوضع تاريخ هذه العبادات المحلية على أساس وطيد . وهذه الطريقة ، من حيث المبدأ ، لا غبار عليها . فالمنتصرون يأتون بالهم الرئيسي ويدخلونه المنطقة المغلوبة عـــلى نفسها ، وان لم يحلوه المقـــام الاول : فحتى آخر تاريخ مصر القديمة ، أتيح دائماً للعبادة التي ترعاها السلطة السياسية القائمة ان تنتشر ويتسع نفوذها .

الآلهـــة الكونيون

الى هؤلاء الآلهة الخصوصيين الذين يضيع سر وجودهم في ظروف محليـــة ، والذين هبطت عبادتهم حتى الزوال احياناً ، او تقدمت بفضـــل ظروف بشرية مؤاتية ، انضم آلهة آخرون كثيرون ، في تواريخ لا نعرف الا القليل منهـــا ، تأرجحت مصائرهم بين صعود وهبوط ، لاسباب مختلفة ، كثيراً ما يكتنفها الغموض ايضاً .

انبثق بعض هؤلاء الآلهة من تأليـــه عناصر او قوى كونية كالشمس والفلك والارض . وليس من غرابة في طريقة الوصول الى ذلـك . شعر الانسان ، في كل مكان ، بضعفه وعجزه ، امام هذه المعطيات الكونية ، فشده ميل طبيعي فيه الى تأليهها . وقد تتميز مصر القديمة بانها لم تنصّب إلا العدد القليل منها. فكان الاهمال نصيب الكواكب باستثناء الشمس ، وما كان القمر نفسه ليحتل مكانة ما لولا ارتباطه بالاله المحلي طوخ ، الاله الحبارى المعد لدور إله الكتابـــة والحساب والنشاطات العقلية . وتتميز ايضاً بانها انتهت الى عدّة آلهـــة لكل من العناصر التي صادف تأليهها نجاحاً كبيراً . ومرد هذا التعدّد ، الثابت بالاسماء المختلفة والمفضي الى ايجـــاد آلهة ممعنين في التنافس احياناً ، بالرغم مما في طبيعتها من عمق الوحدة ، التشديدُ هنا او هناك على ظواهر او بوادر متباينة . وقد يكون مرد ذلك ايضاً ان جماعات بشرية مختلفـة قد شقت او سلكت طرقاً مختلفة . ومهما يكن من الأمر ، فان صفة الشمول ، في اصـــل هؤلاء الآلهة ، بالرغم مما قد اصيبت به من اذى ، اتاحت اكثر من فرصة لاولئك الذين حاولوا جاهدين ان يوطدوا وحدة مصر عن طريق العبادة . وقد استخدمت الشمس قبل غيرها ، بهذا او ذاك من الاسماء ، في سبيل بلوغ هذا الهدف . وكان من الطبيعي ، في بلاد اشعت فيها الشمس قوّتهـــا اشعاعاً ، ان تتجه الافكار اليها ، قبل غيرها من القوى الكونية ، لتحلّها في القمة من المراتب الالهية او لتجعل منها ، احياناً ، محوراً لمحاولة توحيدية .

ومن نافل القول ان فصل الآلهة المحليين عن الآلهة الكونيين غالباً ما يبدو نظرياً . فهو انمـا

يستند الى اصل هؤلاء الآلهة ؛ ولكن هذا القياس يكتنفه بعض الغموض احياناً . فليس للآلهة الكونيين ، عادةً ، معابدُ وعبادات يومية خاصة بهم . غير ان هذه القاعدة لم تكن مطلقة . وكان من جهة اخرى ، للمماثلة والتركيب ، اثرهما بين عدد من هؤلاء والآلهة المحليين ، ودلك باستخدام بعض اوجه الشبه الخارجية التي من شأنها اخفاء تباين الآراء في اصولهم .

لذلك تداخلت ، في كل هذا ، عوامل تطغى عليها الناحية البشرية . ولا عجب ، فقد جمعت بين هاتين الفئتين من الآلهة صفة مشتركة ، وهي انهم بمجموعهم كانوا موضوع عبادة رسمية نظمتها الدولة ، تحت رعاية الفرعون الذي حرص كل الحرص ، وهو اله ايضاً ، على ان يؤدى الاكرام لامثاله . ولكن هذه الرعاية نفسها جعلتهم عرضة للتأثر بعواقب التقلبات السياسية .

الآلهة الشعبيون

كم نود الوقوف على مكانة كل من هؤلاء الآلهة بين عامة الشعب . ولكن اشاع هذه الرغبة من المستحيلات في اغلب الاحيان ، لان شواهد التعبد التي بلغتنا مصدرها الاول ملوك وكهنة وموظفون . فباستطاعة العظماء والاغنياء ، دون غيرهم ، اظهار تقواهم بتقادم وانصاب وابنية تنقش عليها كتابات ثمينة بان تسخر من عوادي الزمن . وتعبر النصوص الشعرية والادبية نفسها ، المحفوظة على اوراق البردي ، عن افكار اللاهوتيين والمثقفين الذين يأنفون ، بفعل انتمائهم الى اوساط اجتماعية رفيعة ، من التوجه الى عامة الشعب كما يأنفون ، على كل حال ، عن التكلّم باسم هذه العامة . غير انه لا يستنتج من ذلك ان هذا الورع لم يرافقه الصدق دائماً . ولكن هل يصحّ ان نستقرىء من خلاله ورع الشعب ؟

بالحقيقة اذا نحن استندنا الى وثائق اقل شأناً يغلب عليها الاغفال ، كبعض التمائم والتعاويذ الصغيرة المصنوعة من مواد عادية ، وجدنا ان عبادة الشعب تميل ، بالتفضيل ، وباندفاع مماثل ، الى آلهة آخرين يطلق عليهم لقب « ثانويين » للفصل بينهم وبين الآلهة « الرئيسيين » ؛ ويغلب ان هؤلاء مدينون بلقبهم هذا الى صفتهم الرسمية . اما الآلهة الثانويون فلم تأبه الاوساط الحاكمة لان توفر لهم مقوّمات العبادة ولم تمن على البعض منهم إلا بالقليل القليل كتلميح اليهم في نشيد او غيره من النصوص الدينية ، او زاوية لتمثال في هيكل ، او قسم من معبد احياناً .

من العسير وضع لائحة كاملة بهؤلاء الآلهة الشعبيين. لذلك نكتفي باعطاء فكرةعن تنوعهم.

لنضرب صفحاً عن الآلهة الغرباء ، ومعظمهم من اصل اسيوي . ولكن نفور المصريين الدائم من الاعراف المستوردة يحملنا على الاعتقاد بأن عبّاد هؤلاء الآلهة كانوا في اغلب الاحيان ، شأن عبّاد الآلهة اليونانيين في عهد السيطرة المكدونية ، اجانب استوطنوا البلاد ، كالهكسوس الغزاة والعبيد الارقاء . واذا وجد من عبدهم من اهالي البلاد ، فلا بد انهم من الجنود والموظفين الذين أقاموا في فينيقيا وسوريا . ولا مكان هنا لأن نفكر بالتجار قبل التأكد من ان التجارة الخارجية أفسحت المجال للمحاولات الفردية . ومما لا ريب فيه على كل حال، ان مصر قد اعطت الاجنبي ، على الصعيد الديني ، فوق ما تلقته منه .

ثم كان هنالك آلهة مرتبطون بالحياة الزراعية ، كالاله الفيل ، والاله الحيـــة ، والكثير غيرهم من القوى الواقية في ظرفي الحمـل والولادة على الارض . واشهر هؤلاء « بيس » حامي المنزل وهو قزم قبيح مضحك ، مقنّع بقناع اصعر ، مشهور بترويض الاسود ، محاط بالقرود الاليفة ، متمتع بصفات آلهة كثيرين . وكان هنالك حيوانات من كل نوع ، تلك التي سبق الكلام عنها ، وغيرها ايضاً ، نخص بالذكر منهـا الجعل الذي انتشرت تماثيله التعويذية انتشاراً واسعاً جداً . وكان هنالك اخيراً بشر مؤلهون لم يبلغوا ، من حيث العدد ، نسبة كبيرة في مثل هذا التاريخ الطويل . ولا شك في ان كل ملك وكل انسان احيط دفنه بجنائز طقسية اصبح الها عند الملوت ، ولكن لذريته فقط ؛ وما كان يتيسر ، الا للتأليه الخاص ، الذي يتوقف انتشاره عـــلى عوارض سرية تحمل الجماهير على الذكرى والتحويل ، ان يوسع آفاق هذا التأليه العـام . وقد استفاد من ذلك بعض الملوك ولا سيما « امحوتب » وزير الملك جيسر (الاسرة الثالثة) ومهندسه وطبيبه ، و « امنحوتب » ابن « هابو » ، مهندس امنوفيس الثالث (الاسرة الثامنة عشرة) . فاصبح كلاهما الها شافياً . وقد شهدت كتابات عديدة على آمال وشكر الحجاج الذين توافدوا حتى في العهد الروماني القريب ، يطلبون منهما الشفاء في معبدهما المشترك داخـل هيكل الملكة حتشبسوت في دير البحري بالقرب من طيبة . وقد اقيمت لهما في مصر عدة معابد اخرى .

اوزريس

لم تنتشر هذه العبادات الشعبية الا في عهد متأخر ، ولكن حرارة تقوى الجماهير قد اسهمت باكراً في انتشار عبادة اله عـــلى الاقل هو اوزريس . وكل شيء يفرض علينا هنا ان نفرد له مكاناً خاصاً : طبيعته الخاصة بين الآلهـة المصريين ، والعون الذي صادفه في ورع الاوساط الشعبية وأسهم من قريب او بعيد في استمالة الشخصيات الرسمية اليه ، وانتيشار عبادته الصاعد ، الذي جعله يلعب دوراً اساسياً في ديانة مصر الفرعونية وحضارتها .

الاسطورة الوحيـــدة ، بين الاساطير المصرية ، التي صادفت شهرة واسعة ، هي اسطورة اوزريس الذي قتله اخوه شيت ، وقطعه اربا اربا ، وبكته زوجته واخته ايزيس ، وبحثت عنه ، وعثرت عليه ، وثأر له ابنه هوروس من القاتل . ولعل مرد هذه الشهرة ذيوع عبادة اوزريس ، الذي استحال الى سيرابيس ، خارج مصر في العهـــد اليوناني الروماني ، ولا سيما ذيوع عبادة ايزيس في كل مكان تقريباً من الامبراطورية الرومانية . فأثارت هذه الاسطورة اهتمام الكتـاب الاغريق واللاتين ، ولا سيما « بلوتارك » الذي وضع فيها كتاباً صغيراً في اواخر القرن الاول للميلاد استقى منه ، باستمرار ، التقليد اللاتيني واليوناني . غير ان نصوصاً مصرية كثيرة تختلف ، في روايتها للاسطورة ، اختلافاً بينا ، وحول نقاط هامة ، عن رواية « بلوتارك » . ومهما يكن من الامر ، فان الفكرة التي تكونت عن اوزريس في مصر قد تباينت وفاقاً للزمان ووفاقـــاً للمكان احيانا وحاولت ، على كل حال ، الجمع بين عناصر مختلفة .

لذلك نرانا امام معاضل كثيرة لا تزال موضوع اخذ ورد ، لعل ادقها اصل هذا الاله . فقد

جاء في مؤلف بلوتارك ان جثة اوزريس قد بلغت جبيل في فينيقيا حيث لم يصعب على ايزيس ان تعثر عليها وتستعيدها . فأخذ بعض المفسرين من ذلك حجة للتأكيد بان آسيـــا هي مصدر عبادة اوزريس ، بينما رأى غيرهم ان اغفال ذكر فينيقيا في الروايات المصرية يكفي للدلالة على ان هذا المصدر هو مصر نفسها . واذا ما افترضنا جدلا ان الخارج هو المصدر ، يبقى ان مصر قد ميزت « اوزريسها » الى حد بعيد . وهذا يبرز بقوّة لدى درس صفاته الرئيسية ، لذلك سنقوم بهذا الدرس دون توقف عند هذا الجدل وغيره .

كان اوزريس ، وهو ابن الارض الإلهة والسماء الإلهة يموت ويبعث حيّاً ، كما كان اله زراعة النبات بوجه عام وزراعة القمح بوجه خاص . والقمح يخضع لدورة دائمة ترمز اليها اهم مراحل الاسطورة وترينا اياه على التوالي مخضوضراً ونامياً وناضجاً وهاوياً تحت المنجل ومتقطعاً تحت النورج ومطموراً في الارض على رجاء البعث .

لذلك سهل اشراكه في قوّة مصر المحيية الكبرى ومماثلته لها . وليست هـــذه القوة سوى « الماء الصافي » و « ماء التجدد » ، اي الفيضان الذي يخضع لدورة دائمة، ايضاً فيندفع صعوداً حتى القمة ثم يهبط نزولا ثم يتوارى على امل الظهور ثانياً بقوّة مستعادة . وقد قيل لاوزريس : « النيل منبعه نضح يديك » لان إلقاءه في مياه النهر قد سكب فيها صفاته الخيرة . وقيـــل له ايضاً : « انت النيل ؛ الآلهة والبشر يحيون من جريانك » . وقد حظي الفرقى ، في عهـــود الانحطاط ، باكرامات إلهية خاصة بحيث دعي الفريق « السيد » او « المحمود ».

كان من شأن هاتين المزيتين وحدهما ان تجعلا اوزريس إله مصر كلّها . ولكن الاسطورة جعلت منه ، بالاضافة الى ذلك ، ملك مصر الموحدة . فهـــل استندت في ذلك الى ذكريات تاريخية ؟ نحن نرجح ذلـــك ، لان مقتل اوزريس ، على يد شيت ، يتجاوب الى حد بعيد والصراعات الكثيرة في سبيل السيطرة على جميع البلاد ، التي وصلتنا بعض اخبارها . واذا صح ان بوزريس في الدلتا كانت عاصمة ملكه ، كما يعتقد ، فقد يكون اوزريس اقدم انسان ألّهته الديانة الشعبية . وعلى كل حال ، قد ربطته بالملكية صلة وثيقة مستمرة. فاذا جسّد الفرعون هوروس ابن اوزريس ، لا اوزريس نفسه ، فان الدعامة « جد *ged* »، احد رموز هذا الاخير، لعبت دوراً هاماً في الاحتفالات الملكية ؛ وان اوزريس يحمل دائمـاً ، في الرسوم التي بلغتنا ، التاج والصولجان وهما من الخاصيات الملكية .

وقد افضى الحلول دون مماثلته بالملك الحيّ الى احلال مكانتـــه سدرة المنتهى والى انضمام الجماهير الغفيرة الغفيرة الى صفوف عباده . فمملكته مملكة الاموات قبل كل شيء آخر . وقـــد اجريت على جثته ، لاول مرة ، المراسم التي تؤمن البعث والحياة الابدية . فاذا ما اجريت على غيره من الاموات ، امنت لهم هذه الامتيازات العظمى نفسها . وقد تاق كل البشر لان يعاملوا بمثل ما عومل به اوزريس ، حتى يصبحوا مماثلين له على غير طمع منهم في منازعته المقام الاول.

فهم رعايا ملك الاموات يخضعون لدينونته بعد اقتدائهم به ، ويجوبون بمعيته ميـــاه العالم الثاني وحقوله . وكانت عبادة مثل هذا الاله املا بالبعث لجميعهم . « فإله الزرع » و « إله الفيضان » و « إله الحياة الجديدة » اسماء مختلفة لاله واحد . ويدل على ذلك ، كل سنة ، استفاقـــة المزروعات وتجدد الفيضان .

ان خاصيات اوزريس الثانوية ، الى جانب ذلك ، كثيرة جداً ايضاً . فقد اشار المفسرون ، على غير اتفاق حول اهمية ما اشاروا اليه ، انه غالبا ما يبدو وكأنه اله الارض الخصبة ، او اله السماء المنتجمة او اله القمر . وما هذه التأويلات المتعددة ، التي تدعمها كلهـــا حجج قوية ، الا الدليل على ما احرزه من نجاح وعلى مـــا فيه من قوة جاذبة عجيبة . ولا غرابة في الامر . فاسطورته المأساة نفذت الى قلب كل من زوجتـــه وولده ، وحركت فيهما المشاعر العائلية المؤثرة ، تلك المشاعر نفسها التي يتوق كل مصري لان يحاط بها . وعبادته طردت شبح الرعب من الموت . فكيف والحالة هذه لا تندفع الجماهير نحوه اندفاعـا تلقائياً أتاح له « سوغ » آلهـة كثيرين ، او ربطهم به ، بعد ان كانوا مستقلين عنه ، فغدوا انسباء له او معاونين . وهكذا قامت « اسرة اوزريس » التي لم يكن هوروس وايزيس سوى عضويها الرئيسين . ولم يقم الكهنة بأي جهد لاحلاله في المقام الاول ، بل حاول بعضهم ، على نقيض ذلك ، في عهد الامبراطورية القديمة ، ان يحاربوه مداورة عن طريق بعض الآلهات من اسرته ، ولم يدخلوه الا على مضض في هامش مذاهبهم اللاهوتية . وقد استفادت الملكية كثيراً من نفوذه على غير رغبة منها في توسع هذا النفوذ ، وهو على كل حال اوسع من ان يعوزه التأييد الرسمي .

المذاهب اللاهوتيـة

دعتنا الحاجة اكثر من مرة للاشارة الى المحاولات المتكررة في سبيل تنظيم الآلهة المصريين الكثيرين تنظيما متجانساً، وهي محاولات متعددة ومتباينة. فكان لكل اله ، في نظر عبدته ، من القـوة ما يسمح برفعه الى المرتبة الاولى . وليس هناك من عقيدة سابقة مفروضة ، كما ليس ما يحول دون الخوض في اكثر البحوث النظرية تطرفاً وجرأة . وقد وردت بعض هذه البحوث في نصوص كاملة حيناً ، ومجتزأة احيانا ، يستلزم تفسيرها منتهى الدقة . وكم منها ما لم يعد يتراءى امامنا فاصبحنا لا نقدّر وجودها تقديراً .

غير ان هذه المحاولات ، في الواقع ، لم تكن في متناول الجميع . فهي تفرض ثقافة دينيـة عالية ، ومقدرة نادرة على التجريد ، وبراعة في استخـدام المجازات والرموز ، كما تفرض ايضاً دعامات بشرية قوية تتيح لها الانتشار الواسع ، ويجب ان تشمل كلهـــا نظرية في الخلق وتنظيم العالم : فهي في الوقت نفسه علوم في تكوين العالم وعلوم في نواميسه . وعلى كل منها ، في الدرجة الثانية على الاقل ، ايجـاد حل لمشكلة الموت المقضة . لذلك وجدت معظم النصوص العـائدة لهذه المحـاولات في المدافن والقبور ، « كنصوص الاهرام » ، و « نصوص النواويس » مثلا . وكان على كل منها اخيراً ان تنتهي الى مذهب الهي يقول بتفوق اله معين . وكان بنـــاء هذا المذهب الهدف المقصود للقائمين بهذه المحاولات . ويغلب ان هؤلاء من الكهنة حاملي الشهادات

الذين انطلقوا من رغبتهم في تبيان تفوق الههم، على نحـــوقناعتهم به . ولم يقم امنوفيس الرابع نفسه بعمل هواة في ما عمله في هذا الحقل مع بعض المساعدين . وكانت الصعوبة تكمن في اقناع الآخرين باعتماد المذهب . فحدث احيانا ان السلطة السياسية نفسها ، بالرغم مما لديها من وسائل نافذة ، قد اخفقت في هذا الاقناع .

مذاهب هليوبوليس ومنف : « رع » و « فتاح »

لا يسعنا هنا ان نغفل بعض هذه التعاليم اللاهوتية بسبب الاهميـة التي اسبغتها على بعض الآلهة . ولكن يتعذر علينا ان نخصص لها دراسة ولو موجزة ، لا سيما وان العبادات هي التي اثرت ، اكثر من العقائد النظرية ، في حياة البلاد الدينية . لذلك فاننـا سنحاول هنا ، قبل كل شيء آخر ، تبيان النتائج العملية التي اسفرت عنها هذه العقائد .

هل المذهب الذي انتشر في هليوبوليس ، بالقرب من منف شمـــالاً ، اقدم من غـيره من المذاهب ؟ لا يسمح تضارب آراء الاختصاصيين باثبات ذلك ، بالرغم من انتشاره الباكر . وقد كان له أعمق اثر باختياره الشمس الها رئيسياً. فما الشمس ، حين يعتبرها خالقة كل شيء حتى ذاتها – لانها خرجت بملء ارادتها من المياه – سوى « اتوم » . ولكنه كان يلبسها شخصية ثانية فيسميها « رع » اي الشمس بالمعنى الحصري ، وبهذا الاسم تمت سيطرتها على مصر كلهـــا . ويبدو انها احرزت نجاحاتها الحاسمة في عهد السلالتين الرابعة والخامسة على الاخص ، اذ ان الملكية ، بعد ان كانت مرتبطة بهوروس وحده ، ارتبطت حينذاك بالشمس ايضاً واضيف لقب « ابن رع » الى لائحة ألقاب الفرعون الرسمية . وقد تسرب اللاهوت الشمسي الى مذاهب دينية اخرى عديدة فاضيف اسم « رع » ، بما يشبه الشمول ، الى اسماء الآلهة التقليدية . وليس ما يمنعنا ، على كل حال ، عن الاعتقاد بان كهنة كثيرين تولوا عملية هذا الاشراك حتى ينال اله كل منهم قسطه من عظمة الشمس الشاملة .

ولعل الاله الوحيد ، باستثناء اوزريس طبعاً ، الذي استطاع ، بين الآلهة العظماء ، ان يحافظ على استقلاله ، هو « فتاح » اله منف . وقد سبق ورأينا ان ملوك السلالة الثالثة جعلوا من هذه المدينة ، القائمة بين شطري مصر ، المركز السياسي للبلاد . فكان هـــذا الخيار خدمة جلى « لفتاح » الذي تبوأ المقـــام الاول بفضل مذهب وضعه لاهوتيو منف . فقد وصفه هذا المذهب « بالخالق الاكبر » ، الذي ينحدر منه روحياً آلهة اخرون بما فيهم « اتوم » ، ليسوا سوى « اسنانه وشفتيه » . فهم وسطاء الكلمة الخالق يعبرون عن ارادته العـاقلة وينفذونها . وقد احتفظ « فتـــاح » ومعبده بمركز مرموق ، حتى عنـــدما انصب عطف الملوك على آلهـــة آخرين .

امون وامون رع

قد يمكننا هنا ان نهمل المذهب الذي ساد مصر الوسطى ، في اهم المدن التي اطلق الاغريق عليها اسم هرموبوليس ، بالرغم من رسوخه في القـــدم

رسوخ العقيدة السائدة في هليوبوليس ، وبالرغم من اهميته لتاريخ النظريات حول تكوين العالم. وغني عن البيان ان الاله الذي توخى هذا المذهب ورفع شأنه هو الاله المحلي « طوخ » ، ولطوخ مكانة مرموقة خاصة حتى لو حرّدناه من كل صلة بسواه . ويبدو ان آلهة كثيرين جداً قد انصهروا فيه . آلهة افاع ، وآلهة ضفادع ، واله قرد ، واله حبارى ، واله قمر . وقد نسب اليه القيام بالوساطات والايحاء الى البشر بجميع النشاطات الفكرية من كتابة وحساب وعلوم وسحر ، فكان بالتالي الاله الكاتب والاله المثقف ، وغدا مساعد اوزريس الاول ورئيس الدوائر القضائية والادارية في مملكة الأموات . وهذا يعني اناطته باوزريس بحيث انه لم يكن اولاً الا في نطاق معابده الخاصة .

ولكن هنالك الهاً انفصل عن الآلهة الذين احاطهم لاهوتيو هرموبوليس « بطوخ » ، هو « امون » ، ومعناه الاشتقاقي « السري » و « الخفي » . فما دعاه الى هذا الخروج وما هي المراحل التي مرت بها عبادته قبل ان تستقر في طيبة ، في مصر العليا ؟ نحن لا نعلم عن ذلك شيئاً . وجل ما نعلم هو انه كان لا يزال شبه مغمور ، في نطاقه الجديد ، حين توصل احد عبدته المحليين ، امنمحت (ومعناه « امون في الطليعة ») ، الى عرش الملك . وقد اسس هذا الفرعون السلالة الثانية عشرة ، فعظم شأن امون بسرعة تكاد تكون من المعجزات ان نحن نظرنا اليها من الناحية الدينية دون غيرها . ولكن يستحيل علينا تفسير هذه السرعة ان نحن لم نفكر بالقوة المطلقة التي تمتعت بها السلطنة الفرعونية حتى على الصعيد الروحي والتي هي ابرز مظهر من مظاهر هذه السلطنة . وكم كنا نود الاقتناع ، بصدد هذا الاله ، بان بوادر العبادة الرسمية عبّرت ، عند كل من اشترك فيها ، عن حقيقة ايمان صميم . ولكن افتقارنا الى وسائل التدقيق يوجب علينا الاكتفاء بالاشارة الى ان الحكام قد تباروا خلال احيال طويلة في السير على خطى الملكية .

كان أمون ، في الواقع ، الاله العائلي للملوك الذين تعاقبوا على عهد الامبراطوريتين الوسطى والحديثة ، وبعدها ايضاً ، طوال الالف الثاني تقريباً . فغدا مع الزمن ، ومغالاة في تصويره مادياً ، والداً للملك الحي . كما ان عقيدة « الزواج الالهي » ، اي اتحاد الفرعون جنسياً بوالدة الفرعون المقبل ، قد بلغت اوج الكمال في عهد الملكة حتشبسوت ، حوالي الف وخمسمائة سنة قبل المسيح ، في الكتابات والنقوش التي تزين جدران معبد دير البحري . وقد دامت هذه العقيدة باستمرار حتى عهد البطالسة . وكان من المفروض ايضاً في الاله ان يسهر شخصياً على طفولة الملك وتربيته ، وعلى اختياره وتعيينه خلفاً لابيه المزعوم ، والهامه السلوك السوي وسط اعباء حكمه ، والاسراع الى نجدته في القتال .

لا عجب والحالة هذه في النجاحات التي حققها « أمون » . فما لبث ، في اوائل الامبراطورية الوسطى ، ان اصبح إله منطقة طيبة . ثم أشرك « برع » ليكوّن معه « أمون رع » الذي استأثر بامتيازات الاله الشمس . وقد لقب « بملك الآلهة » . ثم الحقت به ، بالاضافة الى اسرته

التي اختير اعضاؤها بين آلهة طيبة ، حاشية من آلهة آخرين تباين عددهم حتى بلغ الستة عشر احياناً . ولكن كل ذلك ليس دليلاً على وجود نزعات توحيدية . فآلهة مصر العديدون يدومون باستمرار ولكنهم يخضعون لاله السلالة الحاكمة كما يخضع بانقياد للفرعون كل كائن حي في البلاد .

الثورة « الاتونية » وفشلها

أدت هذه النجاحات لفترة طويلة خدمات جمة للملكية . ولكن تطور الامور ، بفعل هذه النجاحات ، لم يخل احياناً من اخطار تهدد هذه الملكية التي اسبغت الثروات والامتيازات السخية على كهنة معبد طيبة . فافضى الأمر بهؤلاء الى الامعان في الوساطات السياسية العلنية ، بعد ان كانوا يستجدونها استجداءً . وعندما دعت الحاجة الى اصلاح جذري ، ارتدى هذا الاصلاح ، بشكل غريب ، صفة ثورة لاهوتية يلازمها اسم الفرعون امنوفيس الرابع .

ولم تقتصر هذه المحاولة على الناحية اللاهوتية فحسب ، بل تداخلت فيها غايات واهداف زمنية أيضاً : الحرص على تحرير الملكية من نير وصاية الكهنوت الاموني الثقيل ؛ والتصميم الثابت ، بالرغم من الغموض الذي يحف به ومن مساعي بعض المؤرخين ، على ايجاد توافق ديني بين مصر وبين البلدان التي احتلتها في الخارج منذ أوائل عهد السلالة الثامنة عشرة : النوبة وسوريا ؛ واخيراً المقاومة التي اصطدم بها الملك المجدّد والتي بلغت حدّ المؤامرة ، لا بل حد التمرد العلني، فأخذ تصلّبه يتضاعف شدّة . وتطور هذا المذهب الجديد باتجاه نوع من الحصرية، جديد في تاريخ مصر الديني ، اضفى على المحاولة الشيء الكثير من غرابتها المبتكرة .

ولم يكن الاله« أتون »، الذي بذلت هذه الجهود في سبيله ، خليقة اوجدها امنوفيس الرابع من العدم ، لا ولا عبادة اتون ايضاً . بل كان « اتون » الهاً شمسياً ، او بالحري مظهراً من مظاهر الاله الشمس . ولا ضير في ذلك إذ انه قد استفاد من الفتوحات السابقة التي احرزها لاهوتيو هليوبوليس والتي كانت قد انتقلت الى امون باسم « امون رع » . ولكن في هذا الانتقال ما يمكن ان يظهره بمظهر عملية اغتصاب . وقد برز فعلاً ، في ايام بعض اسلاف امنوفيس الرابع ، ميل الى التخفيف من وثاق الاتحاد بين امون والشمس ، ان لم يكن الى فصمه نهائياً . وفي عهد امنوفيس الثالث ابيه ، ارتسم اتجاه اكثر وضوحاً ، فأصبح « اتون » ، وهو اسم نكرة يعني قرص الشمس ، اسماً لاله انتظمت عبادته ، مع ما تستلزمه من كهنة ومعابد ، قبل ان يشترك اخناتون ، حوالى سنة ١٣٧٠ ، بسلطة أبيه الملكية . ويمكننا ان نستشهد بسوابق اخرى كثيرة .

ولكن توضيح هذا التجديد لا يعني قط الانتقاص من اقدام امنوفيس الرابع وجرأته. فكل ما حدث قبله لم يخرج عن نطاق الرغبات المترددة التي لم تقترن باي اجراء جدي محدّد الاهداف. وهو لم يضطلع بالتجديد إلا منذ تفرده بالسلطة مشدّداً تارة على تنظيم ما ورثه من معالم شبه

دارسة ابصر هو ما تعرم به من امكانات لتحقيق هدفه ، وجازماً تارة اخرى في رفض كل مـــا لا يتفق ونظامه الجديد .

وفي عداد ما احدثه الصفة الشخصية التي أحاط بها وحي العقيدة ونشرها في صفوف الرعايا. فحتى ذاك العهد كانت التعاليم اللاهوتية مغفلة لا تتراءى فيها شخصية واضعيها. اما هذه المرّة ، فكل ما لدينا من مصادر يدل على ان الملك وحده ، دون غيره ، هو واضع التعاليم . والمعالاة في ذلك واضحة . فلا يعقل انه لم يستشر احداً او انه حرّر وحده ذلك الاثر الادبي الرائع اعني به النشيد الطويل لاتون . وكان من مستلزمات انتشار عبـادة الاله ان يغامر الفرعون بنفسه في هذا السبيل . ولكن هنالك امراً آخر برز لاول مرة ولمدة وجيزة في الحضارة المصرية وانسجم مع الاتجاه الواقعي الملحوظ في الفن : الاندفاع نحو الفردية ، والتصميم على الاقلاع عن التضحية بالانسان في سبيل عمله ، وبذل الجهود في سبيل احكام نزع الغلاف المثـــالي عن الكائن الحقيقي لاظهاره على حقيقته العارية صافياً وواحـــداً ومكوّناً من لحم ودم وعواطف ، حتى لا يطبق عليه هذا الغلاف مرّة اخرى .

ان الاضواء الخافتة التي تلقيها الوثائق المعاصرة على امنوفيس الرابع نفسه ممـــا يثير القلق ويحرك المشاعر . فالملك يعتبر نفسه ابناً لاتون ، بغير مدلول بنوّة اسلافـــه لامون ، مستعيضاً عن الزواج الالهي بعملية خلق تتجدّد كل يوم كما لو كان « صورة » الاله . ويؤكد ايضاً انه نبي الاله ينزل الوحي عليه دون وسيط : « انت في قلبي ، وليس من يفهمك سواي ، انا ابنك » . والانسان ، اذا ما شاهد مثل هذه الرؤى لا يعلن عن حبه وثقته وشكره فحسب ، بل يندفع ، مستسلماً بكلّيته للانفعالات التي تتركها في نفسه ، وراغباً في ان يخضع كل شيء لهذه الانفعالات عينها . يصمّم على العمل ويعمل بالفعل بنشاط لا يتصوره احد في كائن تدل كل تماثيله على هزاله وتحوله . وينسب البعض ذلك الى سيكولوجية كبار الملهمين ؛ ويرده غيرهم الى مرض نفساني . غير ان التعمق في التحليل يتعدى ما لدى المؤرخ من وثائق ومصادر .

ان اللاهوت الاتوني ، اذا مـــا قورن بالتعاليم اللاهوتية السابقة ، يتميز بطريقته المباشرة الساذجة . فلم تمثل الرسوم اتون انساناً او حيوانا او نغلا بل شمساً كما يراهـــا البشر كل يوم . فانما هو قرص الشمس تضاف اليه بعض الرموز فقط : الحية الملتفة واياد تتناول ، عنـد اقصى الاشعة المتجهة نحو الارض ، التقادم الموضوعة على المذابح ، او تعرض ، امام وجـــه الملك ، الصليب المعقوف التقليدي الذي هو رمز « الحياة » الخير . وهكذا نرى ان الاله يعمل وحده دون آلهة وسطاء . ليس له عائلة او حاشية . كان هو الخالق الوحيد ولا يزال هو وحده يوزع القوة الحيوية اليومية على كل الموجودات التي تتجدد ولادتها ، بفضل ذلك ، مع كل فجر . لذلك فالطبيعة كلها تعترف بجميله باستخدامها المخيّر للحرارة المتجددة : البشر ينصرفون الى اعمالهم والحيوانات تسرح في المراعي والطيور تنطلق من اوكارهـــا والمراكب تمخر عباب النهر صعوداً

وانحداراً والاسماك ترقز في المياه ، كل ذلك يشترك في الانسجام العام الذي اراده والذي هو ناسقه الاعظم .

كان من شأن هذا التعليم ان يفضي الى التوحيد . وما من شك في ان الملك قد ادرك ذلك . ولكن شتان بين الادراك والتنفيذ . فعقيدة « ماهات » او « العدالة – الحقيقة » قد روعيت على الدوام لانها تعبير عن دافع ادبي لا يمكن فصله عن السلطة الملكية . وقد جرت ايضاً ، في بادىء الامر على الاقل ، محاولة تسوية مع الاله « رع » . ولكن هل هذه التسوية لاهوتية على اعتبار ان العبادة الشمسية ، مهما كانت ، لا يمكن فصلها عن تعاليم هليوبوليس العقائدية ؟ ام هي تسوية سياسية يقصد منها الحصول على تأييد كهنة هليوبوليس ضد كهنة طيبة ؟ لا سبيل امامنا للاجابة على ذلك . وعلى كل حال لم تدم هذه المحاولات زمناً طويلاً . وباستثناء هاتين الحالتين ، رفض تعدّد الآلهة بشكل صريح .

لجأ نبي اتون الى صلاحياته الملكية فعمّم عبادة الهه وألغى ، في كل مكان ، العبادات التي سبق ان نظمتها الدولة ومهدت امامها الطرق خدمة لآلهة لا يريد هو الاعتراف بهم . بيد انه ما كان ليستطيع الحؤول دون التعبد الخاص ، لا سيّما في ما يعود الى عبادة الاموات حيث ترك هذا التعبد آثاراً ظاهرة . لكن المعابد تعطلت بعد انقطاع مواردها وخفت حركة الاحتفالات بالذبائح والاعياد وتوقفت الدعوات الكهنوتية وتشتت الكهنة . فانتهى ارتباط العبادات بالدولة الى اضعاف الآلهة القدماء بعد ان كان مصدر قوتهم . وبزوال مرتكز العبادة الزمني انتهت العبادة نفسها الى الزوال .

تحولت هذه اللامبالاة ، بما انطوت عليه من عواقب عملية خطيرة ، الى اضطهاد استهدف الاله امون . كان هذا الاله وكهنته يحتلون مراتب اكثر ثباتا واغراء من ان يتنازلوا عنها بسهولة ، فأثارت مقاومتهم الخطرة في العلن والخفاء تصلباً من جانب الملك . ومنذ السنة الرابعة لاعتلائه العرش ابدل الفرعون اسمه « امنوفيس » (امون راض) « باخناتون » (خادم اتون) فحذا حذوه رجال بلاطه والمقربون اليه بأن ابدلوا اسماءهم الامونية باسماء اخرى تنتسب الى الاله الجديد . وفقدت طيبة مركزها كعاصمة وحلت محلها مدينة « اختاتون » (افق اتون) الجديدة التي انشئت بسرعة مدهشة في مصر الوسطى . ثم عقب الاضطهاد هذه التخلية فرض الحظر في كل مكان على معابد امون وشتت كهنته ولوحقوا واتلفت صوره وعفّي اسمه ، حيثما نقش ، بدق المطارق . وقد تناولت هذه الاعمال البربرية المدافن ورؤوس المسلات نفسها . ولم ينج ما نجا من الصور والرموز الا بفضل الاهمال في التنفيذ هنا او هناك .

بيد ان المجازفة باءت بالفشل . فما هي الاسباب يا ترى؟ نحن لا نرى في الحقيقة سوى اسباب بشرية . وليس باستطاعة التفسير التاريخي ، مرّة اخرى ، تقدير نسبة صدقها او نسبة عكسها لمشاعر المؤمنين الحقيقية . فنحن نتراءى مثلاً عداء اولئك الذين لحق الاذى بصوالحهم بعد ان كانوا ينعمون بالعيش في المعابد . ونعلم ايضاً ان الملك ، بانصرافه كلّياً الى الامور الدينية ، قد اهمل ممتلكات مصر في آسيا إبّان تعرضها للمزيد من الاخطار . وما من ريب في ان اخناتون

نفسه اخذ يتراجع شيئاً فشيئاً . وعند وفاته ، بعد ولاية دامت عشرين عاماً ، انهار مشروعه انهياراً سريعاً . اما خلفاؤه الاولون ، وبينهم « توت عنخ اتون » (صورة اتون الحية) الذي اطلق على نفسه ، فيما بعد ، اسم « توت عنخ امون » ، فقد اكتفوا باجراءات تسكينية . غير ان جلوس « حورمحيب » على العرش ، بمساعدة كهنة طيبة ، قد كرس نهائياً انتصار العقيدة القديمة على الهرطقة . فاستهدف الاضطهاد اخناتون والهه في صورهما وفي كل كتابة ورد فيها اسمها . وصبت اللعنة على عاصمته التي ما كانت لتعرف الشهرة ، باسم تل العمارنة ، لولا الاكتشافات الاثرية .

عاد امون فاصبح إله السلالة المالكة واستعاد ووطّد سيطرته على مصر وعلى الحكومة . فعرفت عبادته ازدهاراً بعيداً لم تعرفه قبل الثورة وجمع كهنته ثروة طائلة وتمتعوا بسلطة نافذة. ولم يضع حداً لهذا الازدهار وهذه الثروة وهذه السلطة سوى الفوضى ونقل الملكية الى الدلتا والاحتلال الاجنبي في نهاية المطاف .

٢ – عالم ما بعد الموت

الايمان بالحياة الثانية

من الجلي ان المصري لم يأبه كثيراً للتعاليم اللاهوتية النظرية ، بل وجه جل اهتمامه الى المصير الذي ينتظر البشر . ولكنه لم يستطع مع ذلك ان يشايع بثبات اي تعليم عقائدي .

منذ ما قبل التاريخ حتى آخر التاريخ القديم ، احيطت جثث الموتى بعناية خاصة فدفنت وفاقاً للمراسم ووضعت على مقربة منها ، في المدافن ، الادوات البيتية او الصور والنصوص الرمزية ، وقدمت لها هدايا اعقاب الميت . وتدل هذه العادات والاعراف على استمرار وشمول الايمان بحياة ثانية ، وعلى اثر هذا الايمان العميق في الحضارة المصرية خلال مراحل تاريخها الطويل وتتضح هذه الصلة خاصة في النطاق الفني . فلن نغالي ان نحن رأينا فيها تعبيراً آخر للتفاؤل الذي اشرنا اليه اكثر من مرة ، كميزة هامة من ميزات السيكولوجية المصرية .

اجل هنالك بعض النصوص الناشزة : نص « حوار بين انسان تعب من الحياة وبين نفسه » الذي بلغنا في كتابة وحيدة على ورق البردي ، وخصوصاً نص « اناشيد ضارب العود » المحفور في بعض مدافن الامبراطوريتين الوسطى والحديثة، الى جانب صورة ضارب العود. وقد وردت في النص الاخير ، بعد التنويه بان المدافن عرضة للهدم ، مقاطع يقود ما فيها من افكار وتشاؤم الى الاخذ بهذا المبدأ : « عش ليومك ولا تعبأ بغدك ». « لا احد يعود من هناك ليطلعنا على واقع الموتى ويعرفنا بحاجاتهم فتهدأ قلوبنا بانتظار ساعة لحاقنا بمن سبقنا الى حيث ذهبوا . فافرح اذن واشبع رغبتك ما حييت ... لا تستطيع الشكاوي انقاذ احد في القبر . اجعل يومك

سعيداً . لا تستسلم للهم . انظر . فليس من يصطحب ثروته وليس من يعود بعد الذهاب .. »

ولكن هذا الانكار — الذي ينتهي على كل حال بنداء الى الفرح ، لا الى التشاؤم — لم يخرج قط عن نطاق الشذوذ . وتكفي كتابة مثل هذه المقاطع الشعرية ، في المدافن ، للدلالة على ان واضعيها لم ينظروا الى الشكوك التي تم عنها نظرتهم الى حقائق ثابتة : وقد اجمعت مصر كلها تقريباً على رفض اقناط الانسان باعتبار الموت نهاية لا غد بعدها . فقد اعتبرته بحرارة ، على نقيض ذلك ، انتقالا الى حياة اخرى . وقد اتاح دلك للفلاح تعزية كبرى مقابل شقائه على هذه الارض . اجل ، لم يعن ذلك ان الانتقال غير محفوف بالاخطار ، او ان الحياة الابدية دائمة الهناء . ولكن هذه الحياة ليست ، على كل حال ، بالعدم او بجهنم .

يتبقى علينا ايضاح فكرة العالم الآخر . ولكننا نميل الى الاعتقاد بان عامة الشعب لم تكن لتشعر بحاجة الى ذلك ، بل تكتفي ببعض الارشادات العملية الوثيقة الاتصال باحدى العقائد . ولذلك استهواها السحر استهواء مستمراً . اما العقيدة نفسها فقد رضيت منها ببعض الضمانات المبهمة التي تنسج مخيلته حولها ما شاءت من الممكنات والمتناقضات احيانا .

نقل العقائد حول الحياة الثانية الى مستوى الشعب

كانت ابواب النظريات مفتوحة امام العقائديين فولجوها مخيرين . حاولوا ، بالطبع ، ان يطبقوا آراءهم على الموت ، اذ ان الخلود من مستلزمات الالوهة . ولكن حريتهم في هذا النطاق كانت اضيق منها في النطاق اللاهوتي نفسه ، لانه ترتب عليهم هنا مراعاة الشعور الشعبي الحذر . وان تسليماتهم الكثيرة معه لحدث فريد من نوعه وباهميته في تاريخ الحضارة المصرية . فهذه الحضارة تقوم في جوهرها على مبدأ تسلسل الرتب وهي ، فيما يتعلق بالحياة الارضية ، عميمة الفائدة للطبقات الحاكمة ، وقاسية في الوقت نفسه على الوضعاء والكادحين . ولكنها اضطرت ، فيما يتعلق بالحياة الثانية ، الى الأخذ بمبادىء تختلف عن ذلك اختلافاً بيناً .

وليس من شك حول هذا التطور . فبموازاة كل حقبة من حقب مصر الفرعونية الثلاث ، نجد سلسلة من النصوص المدفنية ترافق الميت في قبره وتتراءى فيها الحياة الثانية التي يلجها : « نصوص الاهرام » في عهد مصر القديمة ، وقد حفرت على جدران هذه الضرائح منذ اواخر السلالة الخامسة (حوالي ٢٥٠٠ سنة قبل المسيح) وطيلة ايام السلالة السادسة ؛ و « نصوص النواويس » في عهد الامبراطورية الوسطى ، منذ السلالة الحادية عشرة قبيل السنة ٢١٠٠ ، وقد حفرت على جوانب هذه النواويس ، و « كتب الاموات » في عهد الامبراطورية الحديثة (ابتداء من السنة ١٥٠٠ تقريباً) والعهود اللاحقة ، وهي لفافات من البردي مليئة بالكتابات والرسوم توضع الى جانب المومياء . بيد ان الفرق كبير بين هذه المجموعات الثلاث من النصوص . وليس من واحدة بينها تتميز بالجدة . فقد انتقلت ، من سلسلة الى اخرى ، مقاطع طويلة احيانا كاملة تارة ومجتزأة اخرى . وما من ريب في ان « نصوص الاهرام » نفسها تتضمن مقاطع تتعدى ،

في قدمها ، زمن استنساخ هذه المكتابات . اضف الى ذلك ان التلاحم المتين مفقود في كل من هذه السلاسل التي كان وضعها عملية جمع لا عملية تأليف . ولكن بالرغم من هذا الاستمرار وهـذا الانتقال ، في نصوص المجموعات الثلاث ، تبرز ثلاث نظريات يستحيل رد احداها الى الاخرى . وتحديداً لاتجاه هذا التطور العام، تكلم بعض المؤرخين عن « نقل الى الديمقراطية » . ويبدو ان الفكرة التي تعبّر عنها هـذه الكلمة تنطبق على الواقع شرط أن لا تؤخـذ بمعناها الحصري السياسي . فاذا كان على العقائديين ارضاء ميول الشعب ، توجب عليهم تطوير نظرتهم الى العـالم الثاني وتوسيع آفاق تطبيقها .

العقيدة الشمسية في الامبراطورية القديمة

لا نعلم شيئاً ، في عهـد الامبراطورية القديمة ، عن المصير المحدد للفقراء بعد موتهم . ولكن نرجح انه كان وضيعاً جداً . وقد زادت في ضعته تلك الهالة من البهاء التي احاطت بمصير الفرعون . فهل يعقل ان يهوي عن مرتبته عند الموت من كان إلهـاً على الارض ؟ وان هو استقر في قوة سلطانه ، جنت مصر الخيرات العميمة لانه سيشملها بعطفه المستمر . ولا سبيل ، خارج هذا الافتناع ، الى فهم الجهود الجبـارة المتمثلة في تشييد الاهرام الكبيرة . وبالرغم من استنساخ « نصوص الاهرام » بعد ذلك بسنتين ، فانها لا تتناول سوى مصير الملك الذي ، دون غيره ، يهتم له المؤلفون .

تشدد هذه النصوص على صفة الملك الميت الالهية وعلى عظمة دوره . بيـد ان التناقضات ، حول تحديد هذه الالوهة ومظاهرها ، تبرز في هذه النسخة الواحدة او تلك . ولذلك لا يجمع علماء الآثار المصرية على التفسير الواحد . ولنضرب صفحاً هنا عن « الاله العظيم » الذي قـد لا يكون لا اوزريس ولا رع ، وعن رواسب عقيـدة غامضة حول النجوم . يبقى امامنـا ، حينذاك، مذهبان متقاربان غالباً ، متمازجان احياناً ، متباينان اصلاً .

تشبّه هذه النصوص احيانا الملك الميت باوزريس. اجل، انها تتضمن تعريضات مستقبحة بهذا الاله وتهجمات مباشرة احياناً على آلهة اسرته او حاشيته . ولكنها لا تخلو من تمجيد اوزريس ايضاً . ومن الطبيعي ، ما دام اوزريس ملك مصر القـديم ومثال الاله الميت والملك الميت ، يضمن الخلود لنفسه بفعل اكرام ابنه هوروس ، ان يصبح الفرعون اوزريس آخر لا سيما وهو نفسه هوروس ما دام حياً وما دام يخلفه على الأرض ابنه هوروس الجديد . وهو يملك ، بهـذه الصفة ، على « الغرب » ، مملكة الاموات .

واحياناً اخرى تحل محل عقيدة اوزريس عقيدة اخرى اقدم عهداً واعظم قوة تتصل اتصالاً مباشراً وثيقاً بتعاليم هليوبوليس . استطاع اوزريس ، من قبل ، ان يلج الى النظريات المدفنية ، ولكنه لم يفرض نفسه فيها دون سواه . اما هذه المرة فالفرعون الميت يصعد الى السماء كي يصبح هو نفسه الاله الشمس « رع » ، او يعلوه رتبة ، كما يقال احياناً . وبهذه الصفة يملك على مملكة السماء التي تنقسم ، شأن مصر ، الى قسمين .

وتلقي هذه النقطة الاخيرة ، على ضآلة اهميتها ، نوراً على القياس الذي اتاح تعميم الافادة من العقيدة الشمسية على اشخاص آخرين . فالمقابلة القائمة بين المملكة الارضية والمملكة السماوية تفضي حتما الى تخيل المقابلة في تنظيمها . لذلك يقتضي ان يكون للملك الميت اسرته وبلاطه وادارته كما كان له كل ذلك في حياته . وكان من الطبيعي ان يحاط ، في العالم الثاني ، بمن احاط به على الارض . وقد درجت العادة ان يمنح من يريد شملهم بعطفه الارضَ والترخيص اللازمين لدفنهم على مقربة منه ، وفاقاً لمراسم دفنه نفسها ، في رموس مماثلة لرمسه شكلاً ؛ اقل منه حجما . فيستمر هؤلاء المحظيون في مشاركته حياته المجيدة . ولكن فتح هذه الثلمة ، لادخال بعض الاصدقاء والمعاونين المختارين ، قد ادى بصورة حتمية ، مع مرور الزمن ، الى توسيعها .

وقبل ان نصف ونرسم هذا الاتساع ، تجدر الاشارة الى نتيجة اخرى من نتائج هذه العقيدة. فحتى يصبح الملك « رع »، عليه ان يكون « مستقيم الفم » و«مستقيم الصوت » ؛ وفي طريقه الى مملكته السماوية ، عليه الاجابة على اسئلة الملاح الذي يجتاز هو النهر في بطاحه . احل قد تكون هذه الايضاحات الدقيقة استلزمت فكرة دينونة اخلاقية تتناول اعمال حياته الارضية . ولكن لا شيء يفرض هذا التفسير . فالاجراء المتبع لبلوغ الصلاح ، حسب معرفتنا، انحصر في صيغ كلامية يجب معرفتها . وهكذا يكون الفرعون قد امن انتقاله من الملكية على هذه الارض الى الملكية في العالم الثاني . اما المقربون المدعوون للحاق به الذين يشعرون بحاجة للدلالة على انهم خضعوا دائماً للعدالة ، قد يقصدون بذلك العدالة الملكية وحدها ، وهذا يعني انهم يعلنون عن اخلاص خدمتهم . اجل اخذت تنتشر ، من قبل ، فكرة واجب ادبي فرضته الالوهة على عظماء هذه الارض ، ولكنها ، على ما يبدو ، لم تسيطر سيطرة تامة . ان هذه الجرثومة الراهنة ستنمو ولكن السحر الراهن ايضاً سينافسها ويتفوق عليها بجاحاً .

تعميم العقيدة الشمسية

في البدء استمر الذين بلغوا حياة الملك الشمسية خاضعين للملك ،ولكن ضعف الملكية في اواخر الامبراطورية القديمة أثار الفوضى في هذا الصعيد نفسه . ولم تتراجع بعض الشخصيات الكبيرة امام اغتصاب الملك اغتصاباً كاملاً ؛ وقد اعلنت كتابات مدافنهم ، دونما اهتمام لسلطة خلعوا نيرها ، اتحادهم الشخصي بالشمس . وهكذا كانت الفوضى السماوية نتيجة وانعكاساً للفوضى الارضية . وفي الوقت نفسه تراخى حبل النظام الاداري والاجتماعي فتضخم عدد ذوي الامتيازات بعد ان كان ضئيلاً. وقد أمّن بعض الموظفين الصغار لانفسهم الاستفادة من خلود مجيد بفضل مجاملة رؤسائهم او بفضل سلطتهم الشخصية . وقد احتذى بهم اخيراً كثيرون من عامة الشعب وانتشرت المراسم الجنائزية الموضوعة اصلاً للملك وحده وعم الجميع العمل بها . وقد كرست الامبراطورية الوسطى هذا التطور بجعلها من مصر ، كما سبق ورأينا ، ادارة واسعة يقوم كل رجل فيها ، وفاقاً لدرجته ، بالمهمة التي عينتها له

الدولة . وبعد تعميم الوظيفة العمومية في مجتمع منظم تنظيما جديداً ، اتيح لكل شخص الاحتفاظ بدرجته في العالم الثاني تحت قيادة الفرعون . تنبىء « نصوص النواويس » التي يعود تاريخها الى هذا العهد بان العقيدة الشمسية ما زالت حينذاك تسيطر على المعتقدات حول الحياة بعد الموت . فهي انما تشير دائما الى « رع » ولا تأتي على ذكر اوزريس الا نادراً ولا تعطيه سوى دور غير ذي اهمية . لا ريب في ان هذه النصوص مصدرها بعض الاوساط الكهنوتية التي بقيت على تمسكها باولوية الهها . وكان استنساخها على جوانب النواويس بمثابة قربان طقسي بغية الفوز بقوتها الطلسمية . ولكن وثائق اخرى معاصرة ومتنوعة — لا سيما ما جاءنا منها من المدافن الحقيرة — تتكلم عن اوزريس كما عن اله يتحد الميت به او يصبح احد رعاياه . وهكذا فقد عمل بالعقيدتين في آن واحد . ولكن عقيدة اوزريس احرزت تقدما لا مراء فيه .

ان فكرة الدينونة الاخلاقية قد رسخت . وتعود الى عهد الامبراطورية الوسطى ، من حيث المعنى على الاقل ، اكثر النصوص وضوحاً حول واجب الملك نفسه في الطاعة « لماهات » إلهة الحقيقة — العدالة . وفي بعضها ايضاً اثبات لحصول امتحان بعد الموت . اليك مثلاً «تعاليم» ملك لابنه : « تذهب النفس الى مقر اولئك الذين يعرفونها ... انت تعلم ان القضاة الالهيين الذين يحكمون المظلوم لا شفقة عندهم ... ساعة تنفيذ القانون » . وقد درجت العادة في نسبة هذه الدينونة الى رع . ولكن فكرة عقيدة اوزريس لم تلبث ان لابستها . فقد اطلق على الميت اسم « اوزريس المستقيم الصوت » ، الماحاً الى حادثة في اسطورة الاله : الدعوى التي اثبتت حقه في الملك بالرغم من مزاعم شيت .

بيد ان المصريين العاديين ، على ما يبدو ، قد استوعبوا هذه الآفاق البعيدة . فلا ذكر للمراسم والادعية ، على وجه التأكيد ، إلا فيما يتعلق بالملك ؛ وهذا نفسه مما يضعف اهميتها . وان ذلك اكثر صحة عند باقي البشر ، إذ ان خوفهم ، عندما يعبرون عنه ، لا يتعلق إلا بالصيغ الكلامية الجاهزة وقيام انسالهم بدقة بما هو مطلوب منهم . ويبرز شعور مماثل في الطريقة المعتمدة للتخلص من العمل في الحياة الثانية ، وهم لم يواجهوا هذه المشكلة إلا بعد ان تيسر للجميع ولوجها . ولم يشرعوا ، الا في عهد الامبراطورية الوسطى ، بوضع تماثيل صغيرة في القبور يطلقون عليها اسم « الكفلاء » ويعتبرونها صوراً للميت نفسه او لخدامه ويفرضون عليها تنفيذ ما قد يطلب منه من سخريات . وهكذا فان السحر او ما يماثله اتخذ له مكاناً ، يتسع يوماً بعد يوم ، في العقائد حول الحياة الاخرى .

انتصار عقيدة اوزريس

كان انتصار اوزريس ناجزاً في عهد الامبراطورية الحديثة ، ولم يبق من اثر لما اصطدم به من منافسة طويلة سوى بقاء بعض الآلهة ، الى جانبه ، من مجموعة الاله رع ، كـ«ماهات» ابنة رع وكـ«طوخ» مثلاً. وتخلت هليوبوليس عن نفوذها لمركزين رئيسيين من مراكز عبادة اوزريس هما بوزيريس في الدلتا ، وهي عاصمة هذا الاله إبان حياته

الملكية ، وابيدوس ، شمالي طيبة ، حيث عثر على رأس جثته المقطعة . وهكذا تغلبت العاطفة الشعبية على نظريات اللاهوتيين الكونية .

يعيش الموتى اذن في « الغرب » بوجـــه خاص ، و « الغرب » هو مملكة اوزريس تحت الارض . ولا ذكر ، الا عرضاً ، لوجود بعضهم في الزورق الذي تجوب عليه الشمس مناطق السماء . ويسلك رع ، في الليل ، طريقاً باتجاه آخر مستحضراً النور والحرارة للمناطق المظلمة . ومن العبث هنا ان نرى الدقة والتلاحم في جغرافية ما وراء الارض . فهي تلجـــأ الى عبارات غامضة ومتناقضة احياناً « كحقل القصب » و « حقل يالو » الذي جعل منه اليونان « حقول ايليزيه » . ويكتنف الغموض نفسه وصف كيفية تصرف الاموات بوقتهم . فهم تارة يستسلمون للراحة بفضل خدمة « الكفلاء » ، ويحرثون تارة اخرى الارض التي يهبهم اياها اوزريس ، او يقيمون في قبورهم ، او يعودون ، هانئين وغير منظورين ، ليتلهوا بمشهد الاحياء على الارض . ولعل القصد من مقابلة هذه الاعمال المختلفة ترك الخيار لهم في انتقاء الوسيلة التي تحقق سعادتهم . ولعل قدرة سامية ايضا تقوم بهذا الاختيار باسمهم. ولكن لو نظمت هـــذه الآراء التي تتخللها تيارات كثيرة تختلف زمنا ومصدراً ، لفقدت الكثير مما فيها من فتنة واغراء .

وزن النفس وما يعنيه

لم تكن هناك ، على الارجح ، رغبة في الايغال في فهم معنى « وزن النفس » ، ذلك الاجراء الذي يخضع له الميت قبـــل دخول مملكة اوزريس . ان منطقنا ، وقد يكون اداة غير صالحة في هـذا المدى ، يرى ان المفهومين اللذين يعكسهما هذا الوزن لا يمكن التوفيق بينهما . فقد اعتقد المصريون ، من جهة ، ان الميت ، كل ميت ، يخضع لدينونة صارمة وزودوا كل ميت، حتى المجرم ، من جهة اخرى ، بما يضمن له صدور الحكم لصالحه . وهكذا فقد تقابلت المبادىء الاخلاقية والاعتقادات السحرية .

كان للمبادىء الاخلاقية شأنها . فيجلس اوزريس عـــلى عرشه رائساً الهيئة الحاكمة ، وينتظر وحشٌ غريب الخلقة الحكم الذي سيسلّمه المحكوم عليـه . يوضع قلب الميت وريشة ماهات في كفتي ميزان كبير حيث يجب ان يتعادلا للحصول على النعمة المرجوّة . انهـا لرموز مؤثرة حتى في سذاجتها . يدعى قلب الميت للشهادة عليه عند الاقتضاء . وهذه الفكرة ليست بالفكرة التافهة ، ولكن المهم ان يظل القلب حراً في شهادته .

كان الميت يأخذ المبادرة في الكلام فيعترف « اعترافين سلبيين » متوجهـــاً ، في الاعتراف الثاني الاكمل ، الى اثنين واربعين قاضيا منكراً ارتكاب اثنتين واربعين خطيئة يعددها واحدة واحدة . وكانت القائمة طويلة متشابكة غير منظمة تتجاور فيهـــا الاهانات الملحقة بالآلهة ، والجرائم المقترفة ضد السلطات المدنيـــة ، والاضرار المنزلة بأرزاق الغير وشخصه ، والزلات الاخلاقية نفسها .

ان هذا المثال الاعلى الذي تحـــدد بمضاداته بوضوح ، لا يخلو في مجموعه ، من مفهوم سام للوجدان الاجتماعي والفردي على السواء . ولكنه بسبب اكتماله ، قد عز بلوغه وتحقيقه . فكم من الأكاذيب انطوت عليهـــا هذه الانكارات المتسلسلة ، يا ترى ؟ كان الميت ينادي القصادة باسمائهم ، التي يعرفها تماماً ، وكان له ، بسبب هذه المعرفة ، بعض التأثير عليهم . وبالحقيقـــة كانت المحكمة ، بالرغم من قساوة مظهرها ، تخشى التشهير وتقبل بالمساومة . وبعد هذا، يبقى الميزان وهو المرحـلة الاخيرة او المستحدثة ، ويبقى القلب الذي يجب ان لا يتجاوز وزنه وزن الريشة . لكن هذا القلب كان موضوع مناشدات ملحـة هي اقرب للابتهالات الحارة : « ايه يا قلبي بل يا قلب امي ... لا تقف شاهداً ضدي ؛ لا تجعل من ورنك حجـــة علي ... ؛ لا تقل ... » .

ان « كتاب الاموات » الذي يتصمن ، في ما يتضمن ، التفصيلات التي اوجزناهـا ، يدعى بالحقيقة « صيغ لاجل الخروج الى النهار » . يبين هذا الاسم بصورة كاملة ما في هذا الكتاب من منتخبات مجموعة على غير تلاحم ترود الميت بكل مـــا يحتاج اليه للتغلب على المكايد الكثيرة ، المادية والروحية ، التي تنتظره في طريقه الى « الغرب » . وبالرغم من انتقادات بعض المفسرين المعاصرين ، لا تبدو عملية « وزن النفس » ناشزة في هذا المجموع . وكان لا بدّ من ان يقلق لهـا الانسان عند اقتراب ساعة الموت . لكن هذا الامتحان مما تستطيع فيـــه الذاكرة اليقظة ، بمساعدة الكتابة الموضوعـة الى جانب الميت ، ان تخرج الانسان ظافراً بتلاوة بعض العبارات المضمونة المفعول . فكيف يمكن صرف النظر عن كلمة « سحر »، والامتناع عن الاعتقاد بأن اللجوء الى هذه الصيغ كان قميناً بمحو اخطاء الحياة الارضية؟ لا شك في ان المؤمن كان مدعواً لأن يترفع عن هذه الاخطاء ولا يأتيها حتى يكون خلاصه المقبل مضمونا . ولكن مـــا من اثر ، في اي مكان ، لتحفّظ يحصر فعالية هذه الصيغ التي يحرص المؤمن ، وان مجرمـــاً عنيداً ، على ان يتزود بها .

حددت حضارة مصر الفرعونية علماً للاخلاق خاصاً بها جاعلة اياه ، منذ القديم ، على صـلة بفكرة الحياة الثانية التي تتيح امكانات كثيرة للعقوبة . ولكنهـــا تفننت في اكتشاف وتعميم وسائل التهرب من هذه العقوبة . فماذا يكون علم الاخلاق عمليا ، يا ترى ؟

٣ – العبـــادة

كانت النتيجة الحتمية لهذا التهرب ازدياد اهمية العبادة والطقوس . وكان من الضروري ، على كل حال ، ان تكون هذه الاهمية بالغة لان على مصر ، المزدهرة بفضل الآلهة، ان تعرب لهم عن شكرها واعترافها بجميلهم . ولكن عبادة الاموات لم تلبث ان رافقت عبادة الآلهة الحقيقيين . فهي ضرورية لحياتهم الثانية . واذا كان من المسلّم بـه ان الاموات العاديين أعجز من ان

يلحقوا ضرراً كبيراً بالأحياء ، حتى المهملين ، فمن الواجب ان يحسب حساب لتضامن الأجيال المتلاحقة منهم .

وكان بين عبادة الآلهة وعبادة الأموات كثير من النقاط المشتركة ، ولا عجب في هذا الالتقاء بينهما . فالطقوس الجنائزية انما وضعت لصالح الملك الميت ، استبقاء لقدرته العاطفة على مصر ، قبل ممارستها على غيره اولاً وعلى الجميع اخيراً . ولا عجب ايضاً اذا ما قلنا ان هذا التشابه بين العبادتين مصدره اثر اهم العقائد ، عقيدة رع وعقيدة اوزريس بنوع خاص ، على هاتين المجموعتين من الطقوس . فمجموعة طقوس عبادة الآلهة العظماء انفسهم مشبعة بأفكار عقيدة اوزريس ، فكيف بطقوس عبادة الاموات ؟ وفي العجالة التالية ما يسمح بالوصول الى بعض المقارنات بينهما .

عبادة الآلهة

سارت عبادة الآلهة ، من حيث مبدأها ومظاهرها ، على قواعد عامة بالرغم من تنوعها وفاقاً للآلهة والمعابد .

ودلت هذ العبادة على الاعتقاد الثابت بأن الاله يشعر بما يشعر به اي انسان . فالمعبد هو مسكنه الذي تُدخل اليه الحياة والحركة جوقة من الخدم ولا يتاح الا لأرفعهم مقاماً ولوج الحجرة الخاصة حيث يقيم الاله تحت اعراض تمثاله . وهو كالانسان بحاجة الى الكثير من العناية والملاطفة ، والترفه والبذخ ، والمأكل والمشرب ، والراحة والنوم ، واللهو والاعياد ايضاً . وكل هذا كان مضمونا باسم الملك الذي يخول الهبات السخية والذي يتولى الخدمة الكهنوتية بنفسه ، اذا سمحت له ظروفه بذلك ، بحكم كونه ، قانوناً ، الكاهن الكاهن .

كانت تقام كل صباح وفي كل المعابد ، مراسم متماثلة : حركات طقسية وسجدات وصلوات واناشيد واحراق بخور . كان الكاهن يفتح الحجرة الالهية « ويوقظ » الاله ويقدم له ، قبل اي شيء آخر ، « عين هوروس » التي فقدها هوروس في صراعه ضد شيت ثم عثر عليها وقدمها لأبيه اوزريس. ويقدم له بعد ذلك تمثالاً صغيراً « لماهات » ابنة « رع » . ثم يغسله ويلبسه ثيابه ويزينه ويمسحه بالطيوب ويخضبه . ويقدم له اخيراً ما لذ وطاب من انواع الطعام والشراب على سماط او حصير امام التمثال . وفي ساعات معينة من النهار تفتح الحجرة مجدّداً لكي تقدم له وجبة اخرى . وعند حلول المساء ، يرتدي ثياب الراحة ويستسلم للنوم ، بعد ان يقفل المكان المقدس .

اما الذبائح فلم تقدم له لأنه لم يهتم ، على ما يبدو ، لنحر الحيوانات وتقطيعها وطبخها . غير ان الكاهن القائم بالخدمة كان يحرك مطرقة ، ولعل في هذا الرمز ذكرى ماض سحيق لم تخل فيه الاحتفالات من اطعمة مستهجنة .

كان الهدف من الاعياد ادخال البهجة الى قلب الاله المنفرد .ويبدو ان معظم هذه الاعياد، على ضعف معرفتنا بها ، كانت تستلزم تمشهد إولي ، تطوافاً في الهواء الطلق ، على الاقل في بهو

المعبد الكبير حيث كان باستطاعة المؤمنين ان يدخلوا . اما التمثال ، الذي لا يراه عادة الا نفر من المحظيين ، فكان يشترك في التطواف جالساً ، شأن رع في السماء ، في قارب يحمله الرجال على اكتافهم . وكان الاله في هـــذا الظرف خصوصاً ، وربما في ظروف اخرى ووفاقا لكيفيات اخرى ، يجيب على اسئلة العلمانيين باهتزازات من تمثاله يجيد الكهنة تفسيرها .

تأتي المستندات على ذكر اعيـــاد اخرى على جانب كبير من الاهمية او الشعبية . لنترك جانباً الاعياد الملكية ، وهي دينية قبـــل كل شيء ، لان الفرعون اله على الارض له كهنته وعبادته اليومية واناشيده الخاصة . فكان له اذن اعياده ايضاً : اعيـــاد الجلوس في منف ، والاعياد التذكارية السنوية ، وخاصة اعياد « سد » التي تجدّد نشاطه الالهي في مواعيد دورية منتظمة . اما الاعياد الكبرى في المعابد المحلية فان تنوع احتفالاتها الدينية وخاصياتها ، عـــلى معرفتنا المحدودة بها ، تفوق كل وصف ويتعذر تفسيرها احيانا . كان بعضها يستغرق اياما عدة تتخللها انتقالات آلهة يزورون او يردون الزيارة في موكب فخم يسير على مياه النيل . وكان يرافق كثيراً منها مشاهد ايمائية او ناطقة احيانا تستعيد اسطورة الالـــه وتشترك فيها ايضا بعض التماثيل . والاسطورة التي استغلت بالتفضيل ، في هذا الصدد ، بسبب تأثيرهـــا الكبير وشعبيتها الواسعة ، هي اسطورة اوزريس التي استوحتها اعياد كثيرة لا سيما عيد ابيدوس الذي اطلق عليه هيرودوتس اسم « الاسرار » . ولكن الرحالة اليوناني والنصوص المصرية الكثيرة التي تشير اليها تعتمد الغموض حول ما يستطيع الحاضرون استنزاله فيها من إلهامات قـــد تطمئنهم سلفاً عن بعثهم الآتي .

المراسم الجائزية وعبادة الاموات

ويفرض هذا البعث ، على كل حال ، القيـــام بطقوس تؤمّن الشروط المادية الضرورية للحياة الثانية التي لا يمكن تغييرها ، على نقيض الشروط الاخلاقية .

فكان من المهم حفظ الجسد اولاً كي تستطيع النفس التي انفصلت عنه عند الموت ان تستقر فيه . وامعاناً في الحرص على ذلك ، توضع في المدفن تماثيل يستعاض بها عن الجسد . بيد ان الجسد نفسه افضل من كل هذه التماثيل . وبما انه قابل الانحلال وجب تحويـــله الى مومياء وفاقاً لطريقة فنية عولجت بها جثة اوزريس لاول مرّة : انتزاع الاحشاء ووضعهـا في اربعة آنيةمن الالبستر ، فصل اعضاء الجثة على مثال اوزريس وغمرها في محلول من الاملاح المعدنية ، حشو الجثة بمواد راتينجية وعطرية واعادة شكلها بواسطة كتل من النسيل والقش وتقميطها بعصيبات كثيرة من الكتان . ويقوم بهذه الاعمال كلّها مهنيون يعتبرون كهنة من درجة دنيا . وهكذا تغلبت ألوف المومياات على الزمن ، بفضل مناخ مصر الواقي ، بعد جفافها . ومنها ما يرتقي عهده الى الامبراطورية القديمة ، على الرغم من ان طريقة التحنيط هذه قد استمرت ، بعد ذلك ، اكثر من ألف وخمسمائة سنة في طريق التقدم والاكتمال .

ثم تأتي الجنائز مع موكب الاقارب وتماثيل الآلهة والنائحات: الابحار على النيل – على غرار اوزريس – ، الصعود البطيء نحو المقبرة عبر الاسوار الصخرية الغربية، وضع الناووس في مدفن مصمّم كمسكن للميت . ويقوم اخيراً كاهن يمثل هوروس باعمال سحرية ، اهمهـــا « فتح الفم والعينين » ، الغاية منها اعادة الوظائف الحيوية للميت بصورة نهائية . ثم يوصـــد المدفن وتشهر لعنات هائلة على كل من تسوّل له نفسه اقلاق راحته .

ومع ذلك لم تكن مطالب الميت لتقتصر على هذه المراسم الجنائزية . فهو بحاجة الى الغذاء ؛ وهناك نصوص عديدة تكشف عن وسواس الجوع والعطش عنده اللذين يدفعان بـــه الى احقر التسوّلات . من هنا كان النداء الى القرابين الغذائية التي ترافقها الصلوات والايماءات الطقسية . وكانت هذه القرابين مبدئياً من واجبات الابن اولا والحفيد ثانياً وغيرهما الى ما حد له في هـذا التسلسل، وكانت تدعى « عين هوروس »، على غرار الرمز المقدم كل صباح الى التمثال الالهي في المعبد ، وتقابل الوجبات المقدمة للآلهة . ومن الممكن عملياً ان يستعاض بالتماثيل عن الاحفاد ؛ فكان في الميا كل المدفنية خاصة كهنة وايرادات لهذه الغاية . وليس من ذكر عمايا الا ويحى ومن وقف الا ومصيره الحجز . والاموات صائرون حتماً الى الاهمال في يوم قريب او بعيد . وسعداء جداً اولئك الذين لم يعتد على قبورهم سوى الاثريين المعاصرين . وشغلت مكافحة ناهبي القبور اجهزة أمن جميع الفراعنة الذين حرصوا على استتباب النظام ؛ فماذا نقول عن تلـــك العهود التي تراخت فيها الادارة مفسحة المجال امام مخاطرات اللصوص الجريئة في سبيل الاستيلاء على القرابين الثمينة المودعة الى جانب النواويس ؟

من الواضح ان ما قيل هنا لا يختص إلا بعظماء هذا العـــالم الذين عندهم من الثروة والنفوذ ما يزيل كل عقبة مادية تحول دون العناية بجثثهم . ولا تتكلم الوثائق عن غيرهم ممن اصطدم حقهم بالخلود ، من طبقة اجتماعية الى اخرى ، بالعقبات العملية الكثيرة التي جعلته نظرياً فحسب . لذلك يعثر على مومياتهم الوضيعة دخيلة على القبور القديمة ، او على آثارهـــا فقط لان الوفر في التحنيط لا يكون إلا على حساب جودة النوع . وحتى يغـــدو ابن الميت هوروس لأوزريس جديد ، كان لا مندوحة له من ان يملك الحد الادنى من الموارد . وهكذا كان للمجتمع المصري، شأن مجتمعات اخرى كثيرة ، ضحاياه حتى في العالم الثاني ، وهم هم في كل زمان : اكثر الناس ضعة في هذا العالم .

الدين والحضارة

في جميع هذه العبادات ، للآلهة كانت ام للاموات ، لم يكن للافعال المادية ، رسمياً ، من قيمة الا اذا سمت بها التقوى الصادقة واخلاق الكاهن القـــائم بالخدمة ومن يمثله . بيد ان ظاهر الحق ، في هذا المجال ، يفرض علينا موقفاً حـــذراً حكيماً ، بالرغم من ان المثل الاعلى قد دام طويلاً . فالحضارة المصرية ، الى جانب المعابد والتقادم للآلهة والقبور والمراسم الجنائزية والتقادم للاموات ، استندت الى عمود فقري هو معتقداتها التي لا يهم

كثيراً ان تكون رأت فيها اولاً ، عملياً ، العمارات والمراسم الالرامية بنوع خاص . فهي قد شيدت العمارات وبذلت جهوداً صادقة في اقامة المراسم . وهذه المهمة المزدوجة شاقة جداً حتى على بلاد تنعم بمثل هذه الثروة . فقد انهك الفلاحين ما كان يقتطع من نتاج كدحهم . وهم دفعوا ، من بؤسهم الخانع ، بذخ الآلهة وبذخ الاحياء العظام المدعوين لان يصبحوا الاموات العظام . وكان قربانهم ، المحظين في هذا النظام السياسي الساحق ، الفن المصري المغفل والفخم .

الفصل الرابع

المظاهر الفنية والعقلية

١ ـ الفـــن

ان الارتباط بين الدولة والدين ، هيكلي الحضارة المصرية ، من القوة بحيث يتعذر القطع في الصبغة التي تسيطر على الفن المصري ، املكيـة هي ام دينية . وهاتان الصبغتان تتعارضان بل تتداخلان ، فالملك الاله متسلط على الحياة الدينية ، والقبور الخاصة نفسها منوط امرها ، عملياً، بالمؤسسة الملكية ، وهو الملك ، في عهد الامبراطورية القديمة ، الذي يملك كل شيء ويهب ، على هواه ، الارض والمواد اللازمة لبناء القبر . وفي العهود اللاحقة نفسها ، كان الافراد الذين يملكون من الثروة ما يتيح لهم تحسين عمارتهم المدفنية ، مدينين بسعتهم الى خدمة في الجيش او في الادارة او في الكهنوت .

ولذلك يتضح كيف ان عهود ازدهار الفن المصري تقابل عهود ازدهار الملكية الفرعونية . فقد تسنى لهذه الاخيرة ، بفضل الموارد الكثيرة التي وفرها لهـا حسن سير الآلة الحكومية واستثمار المقاطعات الخارجية ، ان تكثر من البناء وتوسع مجالات سلطتها وتوجه جهود الفـن نحو مشاغلها الخاصة . وفي العهود المعروفة بالمتوسطية — الفوضى بين الامبراطوريتين القديمـة والوسطى ، غزو الهيكسوس ، السيطرة الأشورية والفارسية — لم ينخفض الانتاج فحسب ، بل انحط ، من حيث القيمة الفنية ، مظهراً استرخاء موازياً للتخلخل السياسي والاجتماعي ولتصدع التقاليد القومية .

ابداع الامبراطورية القديمة

وهكذا فقد تطور الفن المصري عاكساً في ذلك تطور الملكيـة نفسها . يعود للامبراطورية القديمة ، التي اوجدت ما يمكن ان نسميه قاعدة الدولة وطقوسها ، الفضل في تركيز تقاليد الفن وامثلته الكبرى باستثناء الهندسة المعمارية ، لان تصميم المعبد قد تأخر في بلوغ صورته النهائية ولان الاهرام الملكية الكبرى التي شيدت في عهد السلالة الرابعة لم تؤخذ مثالا لاي بناء آخر. غير ان امثلة الاعمدة الرئيسية وضعت

نهائياً : الاعمدة التي عرفت ، بعد شمبوليون ب « بروتودوريّة » لانها، بخلوّها من القـــاعدة وبضلوعها المجوفة وبتاجها البسيط ، تذكر بطرار من الاعمدة ابدعه الاغريق فيما بعد، والاعمدة ذات الجذوع التي تنتهي بزهرة بردي تقوم مقام التاج . كما ان النحت الذي توصل الى تقنية رفيعة اخذ يحقق التماثيل ويزين الانصاب وجدران المدافن بنقوش بارزة تعالج المواضيع التي ستتوارثها الاجيال : الملك ، الآلهة ، ابو الهول ، الميت وعائلته ، القربان للاله او للميت ، مشاهد الحياة اليومية ، الخ .. فتحددت منذ ذلك الحين المصطلحات الهامة لما يتعلق بالجسم البشري واوضاعه وازيائه وخاصياته .

وجد الفن القديم المبتدع نفسه امام اتجاهين كبيرين : الواقعية والمثالية اللتين على كل فن ان يختار بينهما ، فعكسهما معاً واعطى كلا منهما نصيبه المتفاوت وفاقاً لغاية عمله . احتفظ الفـــن الخاص بحرية اكبر ، دون ان ينحرف عن القاعدة العامة لموضوعه ، وتقيد بالواقع الذي يعبر عنه دون ان يهتم للمبالغة في تعظيمه ، صارفاً النظر فقط عما فيه من ضعة وابتذال وبؤس ومتمسكاً بما في الحياة من فتنة ومن نكتة احيانا . اما الفن الرسمي فقد كان والفن الخاص على طرفي نقيض لان جموح الخيال فيه لا يليق لا بالآلهة ولا بالملوك ، ولذلك فقد انطلق من الواقع المراقب ، اي من الصورة ، ولكن احترام القدسيات قد دخل عليه لاضفاء الجلالة الصافية عليه .

التـــطور اللاحق

يتميز كل من العهود الكبرى التالية بطـابع خاص يضيف الى الفـــن شيئاً جديداً جرياً مع التيار العام الذي يبرز فيها .

حققت الامبراطورية الوسطى تنظيما داخلياً كبيراً . وتبنى الفراعنـة انفسهم هذا الواجب الذي عينت الدولة باسمه ، لكل مواطن ، مكانه وعمله في المجهود الجماعي . لذلك نلمس ، على اوجه بعض التماثيل الملكية على الاقل ، انسانية اكثر احساساً وتألماً وتأثيراً ، حتى في خشونتها . فالواقعية ، هنا ، تتقدم بقوة .

في الامبراطورية الحديثة نلمس عودة الى المثالية . غير ان الاناقة الرشيقة تلطف من تصنع النبل . فلم تكن الطبقات الحاكمة المصرية ، في يوم من الايام ، اوسع ثروة واكثر سعادة مادية واوفر وسائل لارضاء اذواقها الرقيقة .

اما ثورة امنوفيس الرابع – اخناتون – القصيرة الامـد فقد كانت شاملة ، على الاقـــل في البلاط الذي انتقل الى تل العمارنة العاصمة الجديدة، وتميزت ، في الفـــن كما في العقيدة الدينية ، بواقعية جريئة تصور العيوب الطبيعية نفسها الا في شخص الملك . ولكن اخلاصها يسهل عليها التعبير عن الحياة الروحية العارمة التي تجيش في « ملهم » اتون .

ويرافق الجهد ، الذي بذل في عهد سلالات سايس لاستعادة الوحدة الداخلية وبعث السلطة الخارجية ، تصميم حازم على الرجوع الى الفن القديم ، فعاد الفنانون ، بملء اختيارهم ، الى الامثلة العامة في الامبراطورية القديمة ، واخذوا يقلدونها ، مدخلين على الصورة الواقعية ، خطوطهـــا الكبرى الضليعة نفسها .

مصر القديمة في فنها

مهما كان من حقيقة هذا التنوع ، فانه لم يُطِح بوحدة الفن المصري العميقة الجذور . ومن كل ما انتجه هذا الفن ، تبرز ، بقوة غريبة ، بعض التعاليم التي تأتلف مع خطوط جوهرية اخرى في الحضارة الفرعونية .

توفرت دائماً لاهم زُبُن هذا الفن سلطة تؤمن لهم وسائل عمل تفوق بضخامتها كل تصور. وقد نزع هذا الفن ، لا سيما في الهندسة المعمارية ، وفي صناعة التماثيل احياناً ، الى ان يصبح فناً واسعاً جباراً يتعدى الاقيسة البشرية. فكانت مصر ، حتى في هذه الناحية ، ارض الآلهة ، وكان الناس فيها لا يقفون عند حد في خضوعهم وانقيادهم لهؤلاء الآلهة . وتفرض علينا روائع هذه الفن المميزة ، كما جرى للرحالة الاغريق ، ان نفكر بالجماهير التي اقتلعت الفدرات ونقلتها ودفعت بعرق الجبين اثمان المواد الضخمة او الثمينة ، قبل ان نفكر باولئك الفنانين الذين صمموها وحققوها .

فهذه الروائع نفسها ايضاً دليل على الايمان الذي عمر قلوب هذا الشعب ، فتحمل التضحيات الفائقة في سبيل ايمانه بآلهته وايمانه بخلود امواته وايمانه بملوكه .

وقد رافق هذا الايمان ، من جهة ثانية ، رجاء دائم ، فأوجد في الشعب تفاؤلاً وبهجة والهاماً . اجل لم يستسلم الفن المصري لهذه الاتجاهات في كل مكان . ولكنه اتاح لها فرصة الانطلاق ، كلما استطاع الى ذلك سبيلاً ، مضفيا عليها تجنّاً بريئا غدا هو نفسه ، في معالجة بعض المواضيع ، ضربا من ضروب الطقس .

١ — الهندسة المعمارية

مساكن الاحياء

يتجلى طابع العظمة على الاخص في ما تبقى من الآثار البنائية . ولا غرابة في الامر ، اذ ان لمعارفنا حدوداً تقف عندها . هنالك الحدود الزمنية اولاً : فالامبراطورية الوسطى اقل انتاجاً ، وغالبية مدافن هذا العهد مبنية بالآجر وليست اليوم سوى انقاض متراكمة لا شكل لها ، كما ان المعابد ، على كثرة عددها ومتانة بنائها ، قد ادخلت عليها فيما بعد تحويرات جمة .

وهناك ايضا الحدود المنطقية . فكل ما كان معداً للناس في حياتهم على الارض قد قام بالتفضيل ، رغبة في الاسراع ، على مواد يسهل منالها ، لا سيما اللبن الذي ما لبث ان انهار وتفتت . والقصور الملكية نفسها ابعد من ان يتيسر تخطيطها اليوم لان الآثار التي تركتها لا تتعدى بعض ما ازدانت به الجدران وبعض حفر قامت فيها احواض السباحة التي تشير اليها النصوص . وجلي ان هذه الآثار تضمحل اهميتها اذا ما قورنت بالكثير غيرها من الآثار البنائية

الضخمة . واذا كانت هذه هي حالة القصور ، فماذا عسانا نقول عن المساكن الخاصة ، لا بل عن المدن نفسها ؟

بيد ان اعمال التنقيب قد قدّمت لنا بعض الادلة . وهكذا فقد كان اكتشاف معالم مدينة مؤقتة ، مبنية في عهد الامبراطورية الوسطى على مقربة من احد المامل ، اكثر تيسراً ، كما افضى انتهاء اعمال المعمل الى الاجلاء عنها بسرعة . فاتيح وضع تخطيط مساكن مماثلة لموظفي الادارة كما للعمال . ولكن في ذلك كله من الابهام ما لا يسمح بتحديد الغاية من الغرف المختلفة ، حتى في المساكن الكبيرة نفسها . ولنكتف بالاشارة هنا الى سياج البيت من الخارج ، والممر

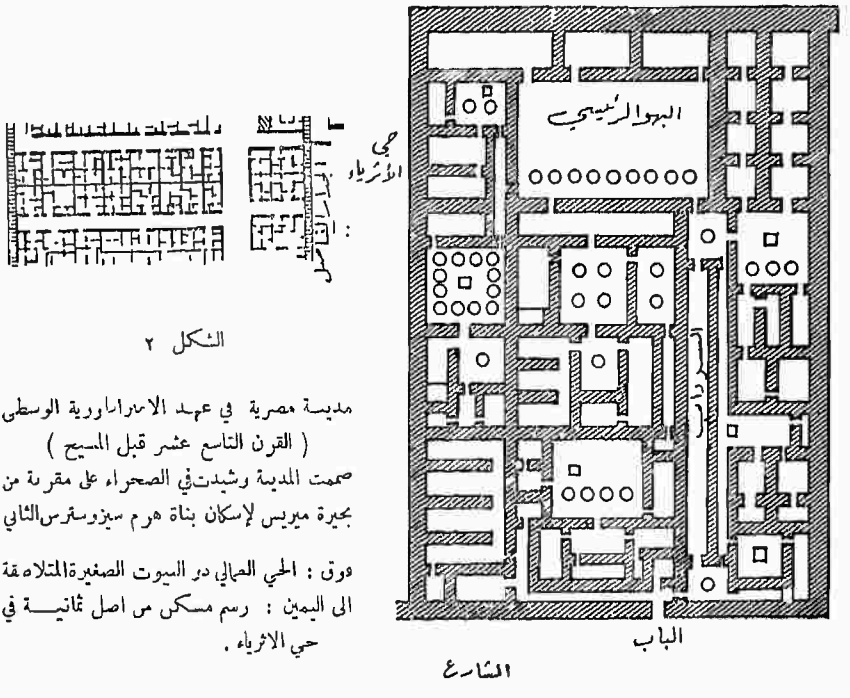

الشكل ٢

مدينة مصرية في عهد الامبراطورية الوسطى (القرن التاسع عشر قبل المسيح)
صممت المدينة وشيدت في الصحراء على مقربة من بحيرة مويريس لإسكان بناة هرم سيزوستريس الثاني

فوق : الحي العمالي ذو البيوت الصغيرة المتلاصقة
الى اليمين : رسم مسكن من اصل ثمانية في حي الاثرياء .

الطويل ذي الزوايا المؤدي الى البهو الرئيسي الذي يحاذيه امام جهته الكبرى رواق مستطيل ، والفناءات الداخلية باعمدتها واحواضها ، وسطوح الغرف التي توفر التنعم ببرودة الليل ، وهذا التخطيط انما يستجيب لرغبة مزدوجة : صفاء المنزل والرفاهية . اما المساكن الشعبية المبنية في حي خاص يفصله جدار عن حي الاغنياء فتقتصر على ثلاث غرف او اربع تؤلف جزءاً من كلٍ هندسي رتيب هو اشبه برقعة الشطرنج .

وباستثناء الحدائق والمساكن المتلاصقة ، وجد العلماء في غير امكنة ، وفاقا للطبقة الاجتماعية المعنية ، هذا السعي وراء الحياة اللذيذة تارة وهذا التواضع تارة اخرى . ولكن ليس في كل ذلك

اي شيء مبتكر يثير العجب ، سوى المعابد والمدافن ، تلك الابنية المشيدة بالحجـــر الصلب والمعدّة ، اساساً ، لان تبقى مدى الدهر ، فبقيت مدى الدهر .

المعبد

لم تستقر هندسة المعبد إلا بعد وقت طويل . ولا يبدو ، في عهد الامبراطورية القديمة ، انها كانت واحدة لكل المعابد، إذ كان لكل إله كبير تقريباً معبده الخاص بـــه . واشهر هذه المعابد معبد الاله الشمس ، وهو طلق السماء كما يليق به ان يكون . استعيض فيه عن التمثال الالهي برمز شمسي كان في البدء ثقيلاً وموضوعاً على قاعدة كبيرة هرمية الشكل ، وقد اخذت عنه فكرة المسلّة . وبعد حقبة طويلة من الزمن ، ادت عبادة اتون ، التي نهض بها فرعون نبيّ ، الى تشييد معبد شمسي مماثل في تل العمارنة . ولعلّ ما بقي من هـــذا التخصص

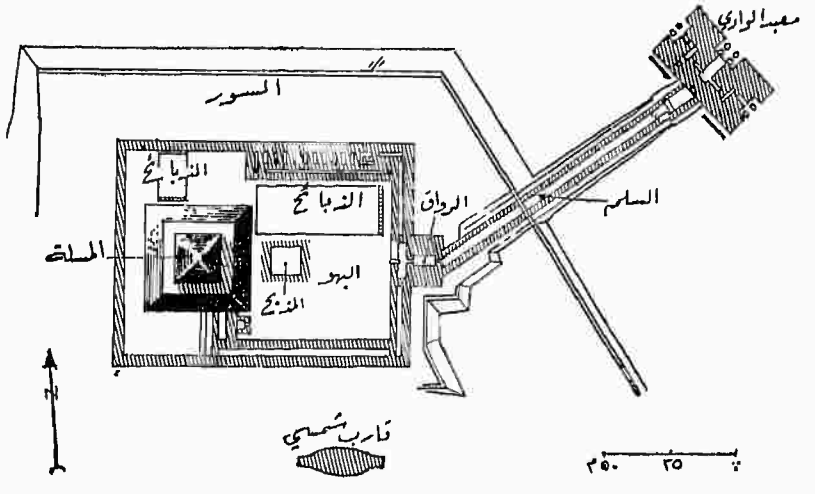

الشكل ٣ ـ معبد شمسي شيده الملك نيوسري
(السلالة الخامسة : حوالي السنة ٢٥٠٠ قبل المسيح)

الأول قد عاد وبرز ، على عهد الامبراطورية الوسطى ، في ظهور تاج العمود « الحاتوري » الذي رسم فيه ازميل النحات مزهراً ورأس امرأة ذا اذني او قرني بقرة . وقد خصص هذا العمود بالمعابد المكرسة على اسم الآلهات . بيد ان هذا العهد قد ابتكر ايضاً ، ولا شك في ذلـــك ، العمود « الاوزريسي » ، الذي يسند اليه الظهر تمثال للملك بشكل اوزريس . وقد اعتمد هذا العمود في المعابد المكرسة للاموات ايضاً . وان في هذين الابتكارين ، لعمري ، دليـل النفوذ الذي تمتع به اوزريس وحاتور احدى آلهات اسرته. وقد توصـل اللاهوت الشمسي ايضاً الى فرض بعض الرموز على جميع المعابد . وهذا برهان جديد على ما لعقائد هليوبوليس واوزريس من اثر عميق : فكان لا بد لوحدة الطقوس من ان تقود الى وحدة التصميم الهندسي .

فبعد التنوع القديم ، توصل المصريون، اذن، في عهد الامبراطورية الوسطى كابعد حد ، وربما قبل ذلك ، الى مثال نموذجي موحد للمعبد الالهي . اجل كان هنالك بعض الفروق في الواقع ،

خصوصاً في معبدي الكرنك والاقصر ، عند مداخل طيبة ، حيث نشاهد كل تركيب عجيب ، لان فراعنة كثيرين ارادوا ان يسموا ملكهم ، فيها ، بأبنية شخصية ، وقد حققوا ذلك اما بتوسيع بعض الاقسام من عمل اسلافهم واما باضافة أقسام اخرى مماثلة اليها . ولكن باستطاعتنا ان نستخلص تخطيطاً عاما شاملاً لا سيما وانه قد حقق ، اكثر من مرة ، في عهود متأخرة جداً وحتى في ايام الاحتلالين المقدوني والروماني .

كانت تؤدي الى المعبد ، من المدينة او النهر ، طريق مرصوفة بالالواح الحجرية يحف بها من الجانبين صفان من تماثيل ابي الهول . وقد يستعاض احياناً عن رأس ابي الهول برأس الكبش .

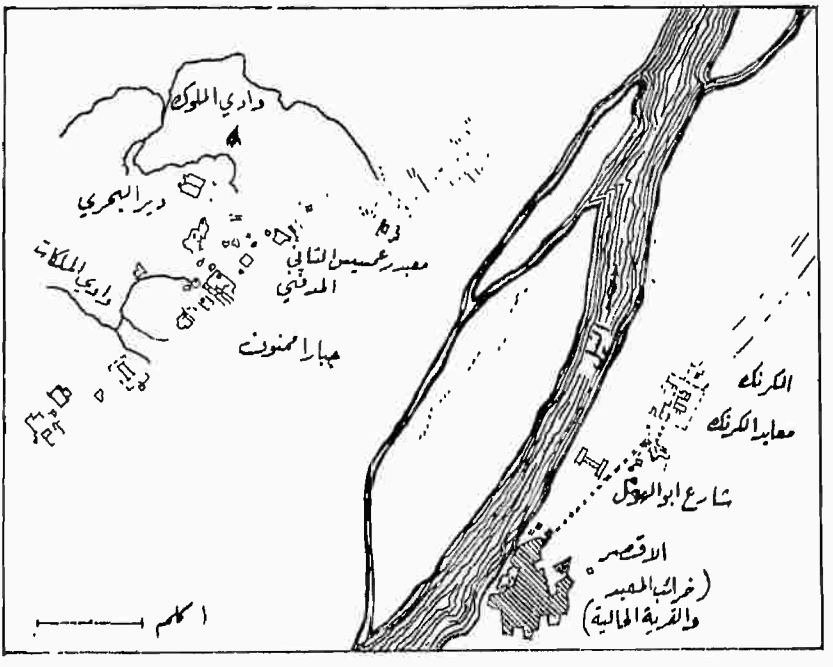

الشكل ٤ ـ منطقة طيبة
كانت مدينة طيبة مبنية على الضفة اليسرى قبالة الكرنك والاقصر

والكبش حيوان مكرس لأمون ، فمن الطبيعي بالتالي ان ينتصب تمثاله في طريق تؤدي الى معبد هذا الاله . وتنتصب عند آخر الطريق ، نقلاً عن العبادة الشمسية ، مسلتان شاختان منحوتتان من حجر واحد تنتهيان عند القمة بشكل هرم صغير ، استرسل المصريون في وصف اعمال البطولة التي تطلبها اقتلاعها ونقلها وايقافهما . وبعد المسلتين يقوم السور بجدرانه الضخمة محيطاً ببيت الاله الذي هو المعبد نفسه . وقد حافظ هذا البيت ، نظراً لقوة مالكه ، على مظاهر القلعة الحصينة من الخارج . وكان يدخل اليه بواسطة باب يقوم على جانبيه عمودان مربعان كبيران تسند اليهما الظهر تماثيل ضخمة للفرعون الباني .

يلي هذا الباب بهو كبير تحيط به اروقة ذات اعمدة يستطيع ان يدخل اليه جمهور غفير من

الشعب إبان الاعياد التي ينظم فيها التطواف بتمثال الاله وهو يرتج على قاربه. اما بعد ذلك فلم يكن مسموحاً بالولوج إلا لبعض اصحاب الامتيازات الذين يتضاءل عددهم شيئاً فشيئاً لا سيما وان قياسات الابنية والغرف نفسها تتضاءل اكثر فاكثر . وعلاوة على ذلك كانت الارض ، بين قاعة وقاعة ، ترتفع شيئاً فشيئاً بواسطة درجات ، بينما كان السقف ينخفض باتجاه الطول ومن جهتي المحور . ويرمز ذلك الى صعود الشمس وانحدارها يومياً في السماء . وقد اشتركت تيجان الاعمدة نفسها احياناً بهذه الرمزية ، فتبدو الازهار ، التي تستوحيها ، متفتحة على مقربة من المحور ومنغلقة الى اليمين واليسار ، شأن الازهار الحقيقية التي تفتح اوراقها في وضح النهار وتطبقها عند اقتراب الليل .

وهكذا فاننا نجد ، بعد البهو ، « قاعة الاعمدة » وهي مسقوفة بألواح حجرية ملقاة على اعمدة مختلفة الارتفاع ، مما يوجد فسحاً بين الالواح يتسرب منها النور والهواء . وبالرغم من ان القياسات نموذجية ، فاننا نذكر هنا بعضها لما تعطيه من ايضاحات ضرورية : تبلغ القاعة الكبرى في معبد الكرنك ، التي اتم بناءها رعمسيس الثاني ، ١٠٣ امتار طولا و٥٠ متراً عرضاً وينتصب فيها ١٣٤ عموداً يزيد ارتفاعها عن العشرين متراً عند محور القاعة ويبلغ قطرها ٣٫٤٠م. فلا عجب اذا ما تركت في نفوس زائريها انطباعاً لا ينسى عن جلال وعظمة هما فوق الطاقة البشرية .

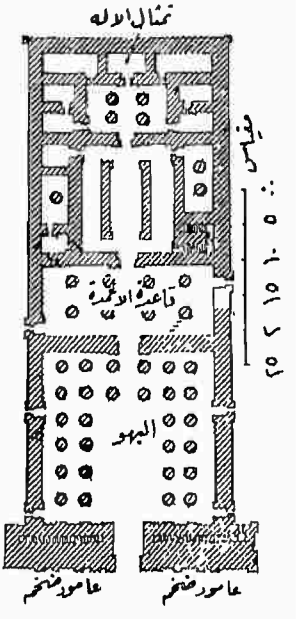

الشكل ٥ ـ رسم معبد خنصو في الكرنك
(القرن الثاني عشر قبل المسيح)

وتقوم اخيراً ، في آخر المعبد ، الحجرة المعدّة لسكنى التمثال اي الاله نفسه ، وهي غارقة في ظلام دامس يفصله عن النور الذي يغمر فناء البهو نور خافت في قاعة الاعمدة . ولا يستطيع سوى كائن بشري واحد هو الملك او مفوّضه ان يفض الخاتم الغِرْيَني الموضوع على باب الحجرة ويدخلها ويحتفل بمراسم العبادة .

وتحيط بهذه الحجرة غرف مختلفة تستخدم مستودعات للالبسة والمصنوعات الثمينة . ولكن يتوجب علينا ان نتخيل ايضاً اراضي محاطة بسور اكثر اتساعاً تتوزع فيها مساكن خدام الهيكل والمكاتب والمخازن والمصانع والحدائق والبحيرة المقدسة ، اي كل ما هو لازم لرفاهية الاله ولضروريات طائفة الخدم المكرسين لخدمته والعناية بممتلكاته .

وقد حدث ان دفعت الرغبة في بذل مجهود يتصف بالجدة الى اختيار مكان المعبد في بقعة وعرة عسيرة المسالك جداً ، كما هي حال بعض المعابد « المدفنية » حيث يحتفل بعبادة الميت المؤله ، وهي هامة جداً حين يشيّدها الملوك إبان ولايتهم وتنسجم مع النموذج العام الذي سبق

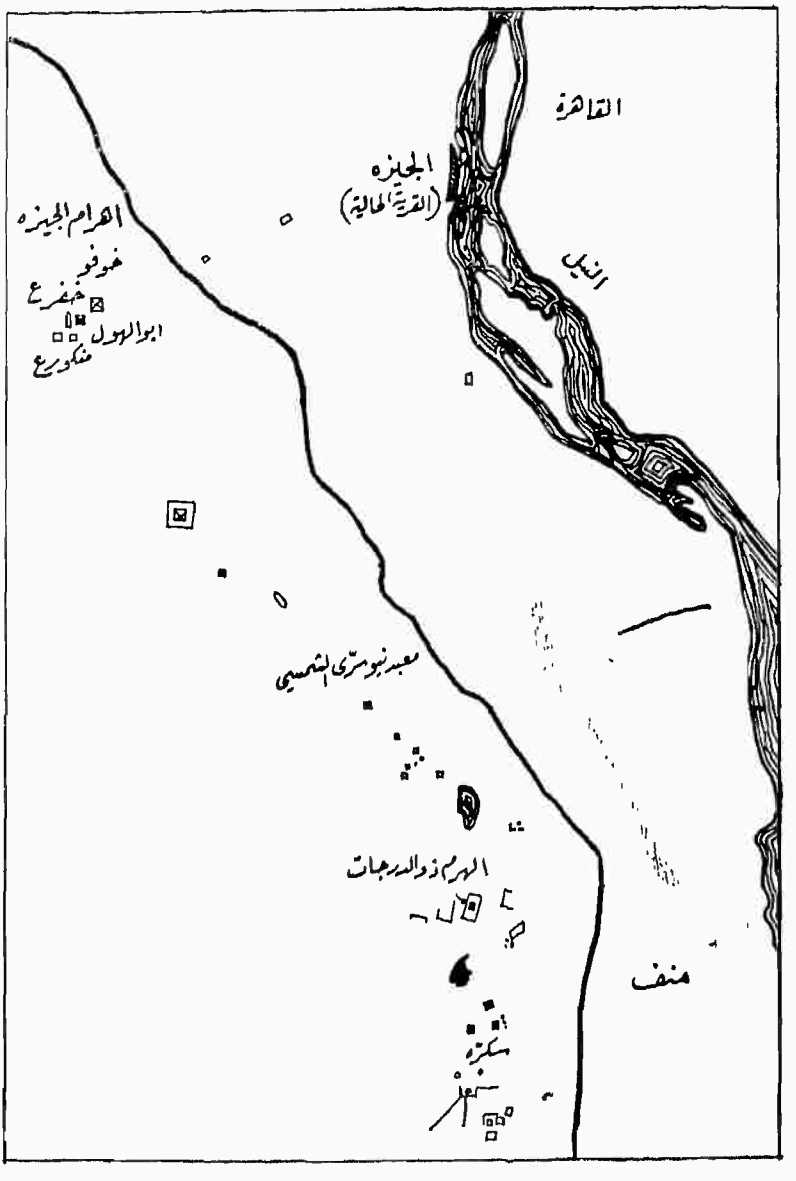

الشكل ٦ ـ منطقة منف

وصفه . ولم يقر الرأي ، إلا في عهد متأخر ، على تشييدها بعيداً عن المدفن القائم خارج السهل المروي والمحروث ، فأقيمت في الامكنة الوعرة . واهم هذه المعابد المدفنية تلك التي بنيت عند حلف اسوار دير البحري الصخرية والمتميزة بسقوف تصل بينها السلالم الحجرية وتقوم عليها الفناءات ذات الاروقة : معبد منتوحوتب الاول والثاني الذي يعود الى عهد الامبراطورية الوسطى وخصوصاً معبد الملكة حتشبسوت حيث وفق المهندس الى الجمع بين عمله البشري وبيئة طبيعية جليلة الوعورة .

نحتت هذه المعابد جزئياً في الصخر الصلد ؛ وحدث ان نحتت فيه معابد كاملة . فقد امر رعمسيس الثاني بنحت اثنين منها في جبل ابي سنبل امام الشلال الثاني ، تتقدمها فناءات في الهواء الطلق وتغوص اقسامها الاخرى في الجبل ، بجدرانها واعمدتها التي ابقي عليها ، من اصل الصخر ، اثناء النحت والتفريغ . وامام اكبر المعبدين ، تقوم اربعة تماثيل ضخمة تمثل الملك جالساً ، وتتعاقب ، في جوف الصخر ، عدة غرف ، بما فيها غرفة الاعمدة ، ترتكز على ثمانية اعمدة اوزريسية .

المدفن

لقد اوحى المدفن ، المعد لاستقبال المومياء والتماثيل الكفلاء ولتأمين مسكن للميت الذي عادت نفسه الى جسده ، تحقيقات اكثر غرابة ايضاً ، اذا جار هذا القول ، لاننا ، اذا ما ذكرنا المدفن في الكلام عن مصر ، ترتسم امامنا في الحال ، صورة تلك الاكداس الثلاثة الهائلة من الحجارة المجموعة التي تنتصب في الجيزة الى الجنوب الغربي من القاهرة . بيد ان الاهرام الكبيرة لا تمثل سوى فترة قصيرة من تاريخ المدفن المصري او بالاحرى ، في نطاق اضيق ، من تاريخ المدفن الملكي .

ان عناصر المدفن الاساسية تبرز بكل وضوح في الابنية المدفنية الاولى التي خلفت ، في عهد الامبراطورية القديمة ، الحفر العادية . فالقبر نفسه محفور على بعض العمق في الارض ، ينزل اليه الناووس في بئر مستقيمة الزوايا . وبعد الدفن ، تؤخذ الاحتياطات القمينة بالمحافظة على سلامة القبر اثناء ردم البئر . وترتفع فوق الارض اكمة صغيرة ما لبثت ان اصبحت نجفاً من الآجر او من الحجر المنحوت وعرفت ، بسبب شكلها العام ، بالمصطلح العربي « مصطبة » . يدخل من جهتها الشرقية الى غرفة اولى هي مكان عبادة الميت ، يتوسطها ، فوق الناووس ، منضدة التقادم الى جانب نصب مدفني . وتقوم وراء هذا النصب غرفة اخرى في المصطبة نفسها وهي « الممر » او السرداب الذي يضعون فيه تماثيل الميت . فالنصب اذن حدّ فاصل بين عالمين : عالم الاحياء وعالم الاموات لا يتصل احدهما بالآخر سوى بواسطة فرجة ضيقة لا يتجاوز علوها طول الانسان . وينحت هذا النصب بحيث يرمز الى باب — ولذلك دعي « باباً مُضلاً » — كما ينقش احياناً في اطاره تمثال يرمز الى الميت العائد الى عالم الاحياء . وقد يطل احياناً ، من كوة فوق مصراعي الباب ، تمثال نصفي يرمز الى الميت مترقباً زائريه .

قبر ومستودع تماثيل ومعبد ، هذه هي الاقسام الثلاثة الرئيسية في المدفن . وقد اضيفت اليها ، في « مصاطب » الاغنياء ، غرف اخرى تقل او تكثر وفاقاً لمكانة الميت . ومن الطبيعي ان يصبح عددها كبيراً في المدافن الملكية .

جرت منذ اوائل عهد السلالة الثالثة محاولات مترددة ادّت الى مثـــال الهرم القياسي . ولكن لا مراء في ان المجدّد الجريء هو احوتب ، مهندس الملك جيسر ، الذي صمّم وحقّق هرم سكـّره ذا الدرجات منضداً فيه ست مصاطب الواحدة فوق الاخرى . وقد شيّد مؤسس السلالة الرابعة اول هرم مربع القاعدة ومتساوي الانحدار . ثم شيّد خلفاؤه الثلاثة المباشرون الاهرام الثلاثة الكبيرة المعروفـة : الاول باسم « افق خوفو » والثاني باسم « عظيم هو خفرع » والثالث باسم « الهيّ هو منكورع » . ويجدر بنا، هذه المرة ايضاً ، ان نذكر بعض الارقام. تغطي قاعدة الهرم الاول اكـــثر من خمسة هكتارات ويتجاوز ضلعها ٢٣٠ متراً، ويبلغ علوّه الاساسي ١٤٦٫٥٠ متراً وحجمه الاساسي ٢٥٢١٠٠٠ متراً مكعباً . ويكاد الهرم الثاني يعادل الاول في قياساتـه (ضلع القاعدة ٢١٥ متراً والعلو ١٤٣٫٥٠ متراً) . اما الهرم الثالث فلا يبلغ ضخامة الاول والثـاني (ضلع القاعدة ١٠٣ امتار والعلو ٦٦٫٤٠ متراً) .

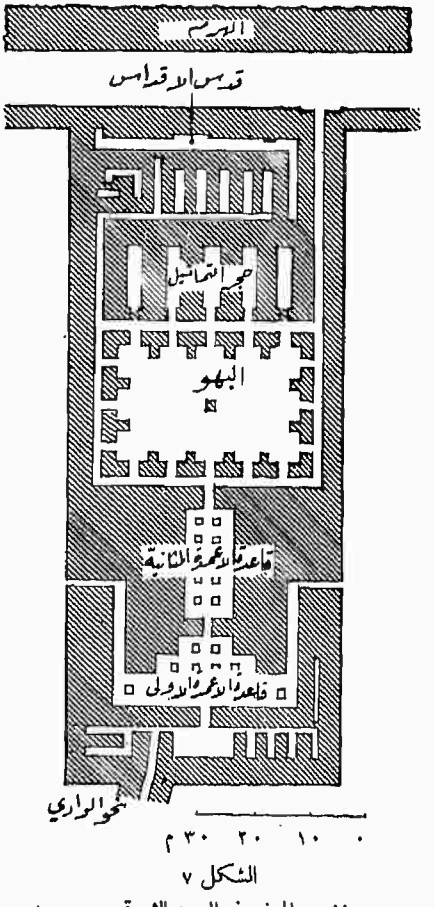

الشكل ٧
معبد خفرع الجنائزي في الوجه الشرقي من هرمه

ان المخيلة لتعجز عن تقدير الجهـد العظيم الذي بذلته في هذا العمل الجبار جماهير غفيرة مسخّرة . ذكر هيرودوتس ان بناء هرم خوفو استغرق عشرين سنة كاملة ، بعد عشر سنوات مكرسة للاعمال التحضيرية وحدها . فهـــل يمكننا التحقق من هذه الاعداد ؟ ولكـــن ولكن ضخامة المجهود تفترض شيئاً آخر ، غير السوط في خدمة الكبرياء ، هو انسياق الشعب في معتقدات تدفع سيده لان يلزمه بهذا القدر من الجهود .

الهرم هو مأوى القبر الامين . والقبر هنا ليس محفوراً في الارض بل قائمـــاً في الهرم نفسه الذي تتشابك فيه الاروقة الكثيرة تسدّها المسالف الساقطة وتتفرع عنها معابر لا منفذ لهـا . ولكن جميع هذه الاحتياطات لم تكن لتثني اللصوص عن عزمهم ، فتوصلوا الى النواويس منذ

اوائل العهد القديم . وقد قام خارج الهرم امام جهته الشرقية هيكل مدفني يأوي ، في الوقت نفسه ، السرداب والمعبد . وبما ان كل هذه الابنية مشيّدة في النجاة الصحراوية ، قام اخيراً في الوادي معبد آخر مسقوف ينسلق المنحدر .

فكلّ هرم من الاهرام الكبيرة ، والحالةهذه ، جزء من كلّ تبرز فيه ، بالرغم مما يفصل بينها ، عناصر المدفن القياسي موسعة حتى الضخامة او منكمشة القياسات ، بالاضافة الى الصخر الناتيء القريب منه الذي استفادوا من شكله الطبيعي لكي ينحتوا منـــه تمثالاً لابي الهول يعلوه رأس خفرع ، وبالاضافة الى العديد العديد من المدافن والمصاطب والاهرام الاخرى المبنية لاعضـــاء الاسرة المالكة ولذوي المكانات الرفيعة . والى « الشرب » من منف عاصمة الملوك الاحياء ، او بالحري الى الشمال الغربي منها ، خلّدت المدافن جلالهم الالهي وعظمة رجال بلاطهم .

كان منكورع قد خفض قياسات هرمه . ولم تقم بعده اهرام ضخمـــة لان المجهود الذي تتطلبه مرهق جدّاً . بيد ان مثال الهرم ، الذي تنسّاه حتى الافراد العاديون والذي تحقق على نطاق ضيق وبمواد اقل جودة ، كالقرميد مثلاً ، قـد دام حتى الامبراطورية الوسطى . كان مركز هذه الامبراطورية قـــد انتقـل من منف الى طيبة ، والنجـاة الصحراوية ، في مصر العليـا ، اكثر تشققاً من الشمال فلا تصلح بالتالي لاستواء الابنية الضخمة . كانت المدافن منـذ القديم ، في هذه المنطقة ، تغوص في السور الصخري ، لا سيما مدافن الامراء المحليين الذين حررتهم عهود الفوضى . وقـــد منّى فراعنة السلالة الثامنة عشرة النفس ، من جهة ثانية ، بان تنجـو مومياؤهم من عبث اللصوص فاعتمـــدوا قبوراً تحت الارض او « دياميس » . امـــا معبدهم المدفني فقـد بقي في السهل ، على مقربة من النيل ، لا صلة تربطه بالقبر المحفور في جوف صخر من صخور احـــد الوديان القفرية الجافة ، سوى صلة الصوفية . وقد استحق احـــد هذه الوديان ، بسبب وفرة مدافنه الملكية اسم « وادي الملوك » ، كما اطلق اسم « وادي الملكات » على واد آخر . وكان مدخل القبر ، بعد المراسم الجنائزية ، يسدّ بكل عناية باكوام من الانقاض والهيار . ثم يدخل في الصخر سرداب — يدعى في اليونانية سيرنغوس وهو اسم آخر يطلق على هذه القبور — تكثر فيه المنعطفات والمنحدرات والسلالم يتفرع الى غرف متباينة الاحجام تستند الى الاعمـــدة عند الحاجة .

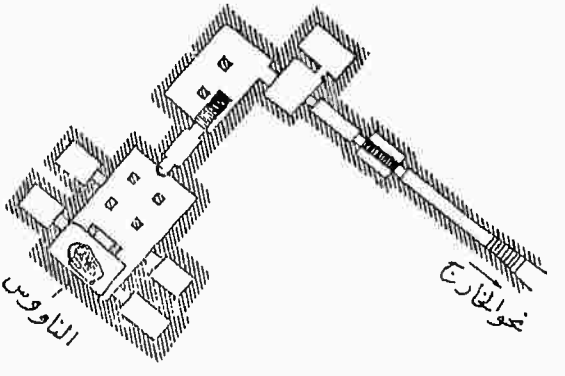

الشكل ٨ ـ رسم دياس امنوفيس الثاني
(السلالة الثامنة عشرة ، القرن الخامس عشر قبل المسيح)

بعد اواخر الامبراطورية الوسطى يكتنف الغموض تطور المدفن الملكي ، إذ ان البيئة الطبيعيّة ، في الدلتا ، حيث انتقل مركز الملكية الرسمي ، غير مؤات للمحافظة على الابنية . فقد اختفت آثار فراعنة سايس . وقد عثر في تانيس ، نحو الشرق ، على مدافن السلالتين الحادية والعشرين والثانية والعشرين ، ولكنها متواضعة ومحفورة في سور المعابد ولا اثر فيها للمصاطب . كانت الملكية سريعة الزوال إذ ذاك فحدّت ، راضية ، من الجهود التي فرضتها لاجل امواتها .

في العهد نفسه استمر حفر السراديب للافراد في مصر العليا . وقد سعى الافراد دائماً في نطاق ثروتهم ، ولو متأخرين ، الى تقليد العادات الملكية ، معتمدين الهرم وحده او الهرم والمصطبة معاً ، وحافرين الخلايا في الاسوار الصخرية الغربية من مناطق ابيدوس وطيبة . اما الفقراء فلا غرابة في ان يكتفوا دائماً بالحفر الوضيعة او ان ينتهزوا ظروف الفوضى والاهمال وانقراض السلالات كي يملأوا مومياتهم القبور المحفورة لسواهم من الاموات .

٢ – النقاشة والتصوير

صناعة التماثيل

ارفع الفنون الاخرى هو النقاشة التي لم تعوزها الظروف لتنتشر . فخلق الصورة هو بمثابة خلق الحياة . والتماثيل ضرورية للدلالة على الآلهة والبشر على السواء ، إذ ان نفس هؤلاء بحاجة الى ما يحل محل المومياء السريعة العطب ، اذا ما ارادت العودة الى الجسد . اضف الى ذلك ما في تزيين جدران المعابد والمدافن واعمدتها من تشويق واغراء . وهكذا فقد وجدت النقاشة المصرية نفسها امام حفلي عمل : التماثيل والنقوش الناتئة ، وقد حققت في كليهما تحفاً فنية مدهشة في ضخامة بعضها حيناً ، وفي كمال جُلّها الفني احياناً ، وخصوصاً في ما يتجلى فيها من صفات جمال وسمو مقصد ودراسة نفسية وفهم للحياة البشرية والحيوانية .

والنقوش الضخمة كثيرة اشتهر منها عدد كبير لا يزال حتى اليوم في حالة جيدة : ابو الهول في الجيزة ؛ والتماثيل التي تسند الظهر الى الاعمدة المربعة الزوايا عند مداخل المعابد ، «كجبّاري ممنون» مثلاً ، وهما الاثران الوحيدان اللذان بقيا من معبد امنوفيس الثالث المدفني في سهل طيبة وقد اطلق الاغريق هذا الاسم عليهما لانه طاب لهم ان يروا فيهما احد ابطال اسطورة طروادة ؛ والتيجان الهائلة ؛ وتماثيل الملوك على شكل اوزريس الداخلة في الاعمدة ؛ الخ . وقد حققت كلّ هذه النقوش بقياسات تتناسب وقياسات الانشاءات الهندسية الضخمة ، فعبرت مثلها عن قوّة غير محدودة ، ووثبة لتجاوز المستوى البشري ، وتوق الى غير المحدود ، وكلّها نزعات تكاد تكون طبيعية في بلاد ثرية وخاضعة لقانون قوتين تتحديان عمل الانسان : النيل والشمس .

ولنذكر بسرعة ايضاً التقنيات التي برع فيها المصريون منذ القرون الاولى من الالف الثالث . استفاد النقاش ، منذ ذاك الحين ، من الارث الذي تركـــه له ناحت الاواني الحجرية ، فعرف معالجة اقسى المواد ، كالحجر البركاني والحجر السماقي والرخام السماقي ، وصقلها صقـــلاً مُلصاً متوفقاً في الاستفادة من الوان الحجر وانعكاساته وعروقه . وقد توصل الى استخدام المعدن في صناعة التماثيل الكبيرة : فتمثال الملك بيي الاول ، منذ السلالة الرابعة ، قـد صنع من الالواح النحاسية المطروقة باداة خشبية ، ونزّلت عيناه بحجارة كريمة نادرة ، والبس وزرة من ذهب . ويستنتج منه ان هذه التقنية لم تكن حينذاك في اول عهدها ، بالرغم من اننا نجهل كل شيء عن المحاولات التي سبقته . وما من شك في ان هذه التقنية قد تكاملت فيما بعد واعتمدت التذويب والالحام ، لا في التماثيل الكبيرة ، بل في التحف والتماثيـــل الصغيرة الكثيرة التي سدقى مصر منتجتها الكبرى والتي ستصدرها الى العالم الهليني باسره والى العالم الروماني من بعده .

وقد فرضت الديانة والجلال الملكي على النقاشة مصطلحاتها وقدسيتها بفعل وثوق الصـــلة بينهما . فلا يهدف الفنان المصري الى الجمال كجمال، ولكن في سبيل غاية محدّدة تسمو على ارضاء هواه . فلا مجال اذن لتغيير الهيئات . وقد لاحظ افلاطون الحظر الموضوع على ابتداع كل ما هو خارج عن التقليد . اجل قد نجد بعض الحرية في التماثيل المعدّة للزبن الخصوصيين ، وقد نجـــد بعض الجرأة في التماثيل الرسمية نفسها . ولكن هذه الجرأة ، اذا ما استثنينا مرحلة تل العمارنة ، في عهد اخناتون ، تبقى محدودة ونادرة . والتمثال ، حالماً كان ام واقفاً ، يصنع وفاقاً لمـــا يفرضه نوعه من ميرات ويرتب ساقاه وذراعاه ويداه ترتيباً معيناً . وهو يبدو في اغلب الحالات كوحدة من كمية تجارية كبيرة .

وغالباً ما يحدث ، في الواقع ، ان الفنان لا يعبر الساقين والذراعين سوى اهميـــة محدودة فيصنع الجسم وفاقاً لقياسات قانونية ويكرس للوجه جل مجهوده . وهو يحرز هنا اكمل نجاحاته . فقد توصل الى تحقيق التشابه الضروري لهوية من يجب تأمين الحياة له ، وتحقيق المثال الذي يعكس تصميمه المجتمع الالهي والبشري والذي يتيح له استخلاص ميزاته العقلية والادبية ومشاعره النقية . وهكذا ، من عهد الى عهد ، ومن تحفة الى تحفة ايضاً ، بحسب صفة الشخص الممثل الرسمية او الخاصة ، اختلفت الاهمية المعطاة لهذين الاتجاهين اللذين تسهل دائمـــاً مع ذلك رؤيتهما .

يتعذر علينا هنا ان نذكر كل شيء . ولكن كيف لا نعدد على الاقل اكثر التحقيقات سحراً وهي اليوم مفخرة المتاحف التي تعرضها ؟ وسنقوم لذلك باختيار شاق لانه يفرض علينا التضحية بالكثير منها .

فمن عهد الامبراطورية القديمة نذكر رأس خفرع يحميه جناحان يبسطهما وراءه صقر هوروس ويبرز فيه صفاء جلال لا حدود له ؛ والتمثال الخشبي لاحد موظفي السلالة الرابعـــة وهو قوي

الدلالة وينم عن سلامة القلب ، حتى ان عمال ماريت قد لقبوه بشيخ البلد ؛ وتمثال الكاتب المقرفص المعروض في متحف اللوفر ، وهو من الخشب ايضاً ، تشع عيناه انتباهاً وذكاء حاداً وتتمثل وظيفته في وجهه . من الامبراطورية الوسطى نذكر تماثيل حتشبسوت وامنوفيس الثالث الرشيقة ، بالرغم من آثار التخنث فيها ، والتمثال المعروض في متحف تورينو والذي يحمل اسم رعمسيس الثاني . ومن عهد سايس اخيراً نذكر رؤوس شيوخ عدة قعّرها الهم فوق ما قعّرتها السن .

بيد انه يجدر بنا ان نفصل تحف عهد تل العمارنة عن هذا الرواق المستطيل في الزمن والمتصف بالوحدة بالرغم مما فيه من فروق ظرفية . فعهد تل العمارنة قد ادخل ، على التماثيل والنقوش الناتئة معاً ، لهباً من الواقعية والقسوة : بدانة الاوراك ، وانتفاخ البطن ، وسماجة الجمجمة ، وطول الاعضاء والرقبة وضعفها ، ونتوء الذقن في الوجه . وقد برز كل هذا في عهد اخناتون منذ بداية ملكه ، حتى قبل ان يقاطع امون . فبعد رفض مصطلحات القانون حول الشكل الخارجي ، اهملت الهيئات التي اتصفت بعد ذلك بالميوعة والحقارة والتصنع ولم يعد يشع منها اي جلال . غير ان هذه النقوش نفسها ، التي تشبه الصور الاستهزائية الى حد بعيد ، تأسر القلب بخلوص المشاهد العائلية – الملكة او الاميرات الصغيرات على ركبتي الفرعون مثلاً ! – وبسحر رأس نفرتيتي المعروض في متحف برلين الذي لم يفقد شيئاً من صفائه المستحب بالرغم من انتشار نماذجه التجارية ، وبدراسة الشهوانية في اجسام الفتيات ، وبالروحانية الفائضة في نظر الملك الذي ينيره وحي مسكر انزله الهه عليه . اجل ليس هذا العهد سوى هنيهة في تاريخ النقاشة المصرية ، ولكنها هنيهة لا تنسى بسبب قصرها الذي لم يتح لها تثبيت مصطلحات فنية جديدة تفسد هي معها في تصنع يميل الى الزوال .

النقش الناتىء والتصوير

اضيفت الى الكتابات التي ازدانت بها جدران الابنية نقوش ناتئة اتسعت لها مساحات كبيرة يجب تجميلها في هذه الجدران . ولكن النقوش لم تملأها كلها ، لا بل انها ، حتى في المساحات التي زينتها ، تتصف بطابع من السرية ابعد من ان يؤثر في شعور بالعظمة تحدثه رؤية الجدران بعناصرها المتناسقة . واذا ما استثنينا انصاب الابواب المضلة ، فاننا لا نشاهد نقشاً كثير النتوء . اما النقش القليل النتوء فيكاد يكون منعدم السماكة بحيث لا يظهر فيه الظل سوى قسمه الدائري . وقد يحدث ان لا يكون هنالك نتوء البتة ، لا سيما في النقوش المقعّرة ، المعتمدة في خارج الابنية للأقلال من خطر التعديات ، وفي داخلها ، بدافع السرعة الذي نلمسه خصوصاً في عهود عظام البنائين من فراعنة الامبراطورية الوسطى ، كرعمسيس الثاني مثلاً .

وبرزت في بعض الغرف المظلمة او القليلة النور حاجة الى ابراز الرسم فاوجب ذلك ، منذ البداية طلي النقوش بالالوان . ولم يمض وقت طويل حتى استعملت الالوان وحدها بسبب تدني

سعر كلفتها وسرعة وسهولة انجازها ، فاستعيض بها عن النقوش الناتئة وظهرت فعلاً في بعض المدافن الخاصة العائدة الى عهد الامبراطورية القديمة . ثم انتشر استعمالها حتى كادت تستعمل دون غيرها ، في السراديب عموماً وحتى في سراديب الملوك انفسهم ، بسبب شوائب الصخر ، الذي يكفي ان يطلى بالدهان حتى يصبح صقيلاً .

لذلك كان من الطبيعي ان يخضع هذان الفنان اللذان تجمع بينهما غاية واحدة ، اعني بهما التصوير — دونما ظلال — والنقاشة الناتئة ، الى قواعد واحدة هي قواعد الرسم . وكان هذا الرسم اصطلاحياً بسبب رفضه تصوير الاشياء بحسب رؤية العين وتمثيله الجسم البشري تمثيلاً كيفياً . ففي الجسم مثلاً ، لا يرى الرأس الا من جانبه ، بينما ترى العين مقابلة ؛ وترى مقابلة ايضا ، الا في حالات نادرة جداً ، الاكتاف واعلى الجذع الذى لا يرسم فيه سوى ثدي واحد . ولا ترسم الاعضاء الا من جانبها ، وترى في اليد الاصابع الخمسة بينما تخفي اباهيم الارجل الاصابع الاخرى كلها .

يسهل علينا ان نطيل لائحة هذه المصطلحات . ومن نافل القول انه لا يجوز ردها الى خرق الفنان بل الى احترامه لتقاليد دائمة ثابتة . فمهارة الرسام ليست بحاجة الى دليل .

وهو لم يتصرف بموجب مهارته الا بحكمة عندما يعالج المواضيع الرسمية . والمواضيع الرسمية كثيرة نقتصر هنا على ذكر بعضها : مراحل العبادة الرئيسية ؛ والزواج الالهي اي اتحاد امون بوالدة الملك المقبل ؛ وعناية الآلهة بهذا الملك ؛ والاعياد الملكية الكبرى ؛ وتشييد المعابد وزخرفتها ؛ وقيام الغرباء بتقديم الجزية ؛ والانتصار على العدو ؛ والى ما هنالك ... ولكن ما هو عدد هذه المواضيع يا ترى ، اذا ما قورن بالمساحات المطلوب تجميلها : اعمدة المعابد المربعة الزوايا ، واروقتها ، وجدران غرفها ؟ كل هذه المواضيع قد عولجت دون ملل ودون طابع الفردية بحيث ان الفرعون قد استطاع اكثر من مرة ، ان ينسب لنفسه نقوشاً ناتئة انجزت في عهد احد اسلافه . وفي تكرارها الرتيب دليل قاطع على استمرار الديانة والمثل الملكي الاعلى طيلة الوف السنين .

ولكن لا يصح القول نفسه في غير ما للملوك من قصور وبيوت ومدافن . فتقسيم هذه الى غرف عديدة قد ضاعف منها الجدران وزاد في رغبة الانتفاع بها للتزيين . ولم تقف عبـاذة الاموات دون ذلك ، بل دعت اليه بكل تشويق . فرسمت عليها مشاهد الجنائز وعمليات وزن النفوس . ولكن الجنازة ووزن النفس انما يقودان الى حياة ثانية لا يمكن تخيلها اكثر سعادة الا بتشبيهها بالحياة الفانية . وكان لا بد ، بالاضافة الى ذلك ، من مواجهة امكانية انقطاع خدمة القرابين على يد الاحفاد او الكهنة الاختصاصيين . فكانت افضل طريقة ، للحؤول دون هذه الامكانية ، اللجوء الى ما في الصورة من قدرة خلاقة وتصوير كل ما قد يحتاج اليه الميت وكل ما يمكن ان يدخل البهجة في قلبه . وكما ان باستطاعة تماثيل السرداب ان تقوم مقام المومياء ، كذلك يكون باستطاعة النقوش او الصور ان تحل محل واقع غير متوفر .

هذا كان المنطلق العقائدي لرسوم متنوعة لا تحصى . فهنالك مشاهد التقادم مع كل ما يمكن تخيله من مآكل ومشارب وازهار والبسة تتمثل بمنتهى السخاء والشاهية والبذخ . وهنالك جميع مشاهد الحياة الريفية والمهنية الشاقة ، وقد رسمت للدلالة على اغلال هذه الحياة ولاعادة الميت الى وسط اراضيه والعمال الذين اشرف على نشاطهم . وهنالك اخيراً مشاهد القنص والصيد والملاحة والتنزه والخلوص العائلي والولائم التي تتجلى البهجة فيها بالموسيقى والرقص والبهلوانيات والشعوذات ، وهي مشاهد غنية كسابقاتها بما توحيه من ذكريات وذكريات. وتكاد هذه اللائحة لا تقع تحت حصر . ولو جاز لنا ان نثق بهذا النشاط الداعب المنسوب دائماً الى اليد العاملة ، لاستعادت هذه المجموعة الكبيرة من الصور كل عمل وكل هنيهة من اعمال وهنيهات الحياة المادية في مصر ، بمهامها وافراحها اليومية ، لان مصر قد استحرّت في مساعيها لان تنقل الى العالم الثاني طيب العيش الذي لم يعوزها منه شيء على هذه الارض .

بيد ان هذه اللائحة لا تخلو من مواضيع تقليدية يكثر تكرارها في حقلي الاجتماع والفن على السواء . ومن النادر ان لا يعالج الموضوع الواحد مراراً عدّة ، ولكنّ بفروق تسترعي الاهتمام. وفي الواقع تحرر النقاشون والمصورون من بعض قيود الطلبات الرسمية وعملوا بوحي مخيلتهم ، دون ان يتركوا لها العنان ، فأدخلوا على الهيئات بعض التغييرات في الجزئيات خصوصاً . وهكذا تسربت الى المشاهد النموذجية نفسها اشياء جديدة مستعذبة غالباً ، مفتنة ولطيفة دائماً، وغير مستقبحة ابداً . فالشرهون انفسهم وحتى الشرهات يحتفظون باناقتهم عندما يتقيأون اطعمتهم . وفي الوقت نفسه استطاع التصوير ، الذي احتل مركز النقاشة في هذه المواضيع الخاصة، ان يبلغ مستوى الفنون الرفيعة في اواسط الامبراطورية الحديثة . فقد لفت تمثيل الحيوانات الانظار منذ زمن بعيد ، ولكنه بلغ القمة، حينذاك ، بجدة الملاحظة والحياة المصطفقة التي تملأ الهررة البرية والطيور وحتى الحيوانات المجترة .

الفنون الثانوية

لو اتيح لنا القيام باستعراض الفنون المصرية كلها لوجدنا كثيراً من الفنون الثانوية التي تستحق ذكراً خاصاً ، لا سيّما الصياغة التي تبهر النظر بدقتها وقيمتها، والحياكة التي كشفت مفروشات مدفن توت‌عنخ أمون عن قطعها الفخمة العجيبة . وان في كل هذه الفنون دليلاً على مهارة في التقنية لا تجاريها مهارة وعلى ابتكار يحافظ على الاناقة في اغرب التحقيقات وعلى انتاج مكثار نادر . ولا عجب في ذلك ، اذ ان زبن هذه الفنون من الطبقات الرفيعة التي لم تكن غريبة عن أي مظهر من مظاهر الظرف والاناقة . واذا ما قل عدد هؤلاء الزبن في مصر ، بفعل مصائب الدهر القاسية ، تلجأ مصر الى التصدير على نطاق واسع مع انها لم تلجأ اليه الا عرضاً في عهود ازدهارها .

وان ندرة هذا التصدير نفسها ، قد أسهمت ، خلال أجيال طويلة ، في رفع أثمان القطع واذاعة شهرتها في العالم المتوسطي الذي سبقته مصر بأشواط بعيدة . فانصبت الاطماع من كل

جهة على منشأ هذه الروائع ، بينما وقف الرحالة والمرتزقة معجبين بتلك الأبنيـة الضخمة التي استطاعت مصر وعرفت ان تشيّدها . فتحت مصر ابوابهـا للأجنبي ، وحتى اواخر التاريخ القديم ، استمالت اليها السيّاح وقدمت للهواة حاجاتهم من التحف الجميلة والثمينة . وبالاجمـال لم ينقل الأجانب عن فنهـا الا بعض التقنية ولم يستلهموا قط ما فيه من ايحـاء عميق . ولم يبرز الفن المصري ، على صعيد الجماليات ، مربياً او موجهاً لأي فن قديم .

ولعل مرد ذلك ان الفن المصري قد جهل الانسان . فهو لم يخصص له مكانه ، بل اهمـله كما أهملته كل الحضارة التي هو لها ، في اكثر الأحايين ، بمثابة إزهـار عظيم . ولم يدرسه كفرد الا قليلاً ، كما لم يخدمه الا نادراً خارج الطبقات الحاكمة التي أحاطهـا بالجلال والعظمة اولاً وباللطف والظرافة ثانياً . ونظراً لارتباطه الوثيق بهـا ، بسبب رسالته الدينية والسياسية ، تعذر عليه التخلص من قيود التقاليد الرسميـة ومن الاحتذاء بماض قديم سحيق . وكان مكتوباً له ، في عالم نزعت قواه الفنية الى مثل أعلى آخر منذ قبل اواسط الألف الأول ، ان ينكمش على نفسه ولا يؤثر في غيره ويعيد الصيغ نفسها أو يتكلّف الرقة .

ب ـ الحيـاة العقليـة

لم تترك الحياة العقلية في الحضارة المصرية طابعاً شبيهاً بذلك الذي تركه كل من الديانة والفن . فقد كانت ، شأن الفن ، في اكثر مظاهرها ، بمثابة ملحق للديانة تشتق منهـا وتخدمها . ولكن تحقيقاتهـا متواضعة جداً اذا ما قورنت بتحقيقات الفن . وهي قـد شابهت ، في كثير من خطوطها ، الحياة العقلية التي قابلتها في النموّ في بلاد ما بين النهرين . فهي قد انطلقت من نقطة واحدة ، من تلك الأرومة الروحية التي لم ترض قط ان تنفصل عنهـا ، وسارت في اتجاهات مماثلة ، خاضعـة لمشاغل وتصرفات تكاد تكون واحدة ؛ ولم يتفرد بصفات مميزة حقـاً سوى الأدب بمعناه الحصري . بيد ان سكان ما بين النهرين قد تخطوا المصريين في كل نواحي هذه الحياة تقريباً . لذلك سيكون من الجدوى بمكان ان نفرد للفصل الذي سيخصص بهم بياناً اكثر استفاضة عن الوسائل المعتمدة والنتائج المحصّلة . وفي نظر الاغريق ، يبدو ان المصريين قد بلغوا بل تجاوزوا ، على صعيد الفكر والعلم ، الشهرة التي بلغها سكان ما بين النهرين . ولعل مرد ذلـك الى ان مصر المفتوحة على البحر والداخـلة ، قبل فتح الاسكندر ، في صراع ضد ملك الفرس ، عدوهم ، كانت تستهويهم وتفتنهم اكثر فأكثر . ولعل لذلك سبباً أقـل تعقيداً ، وهو ان المصريين ، الذين يجيدون الكلام ، قد تفوقوا في التباهي والتفشير .

ونحن ابعد ، على كل حال ، من ان يحق لنا احتقار تحقيقات العقل المصري .

الكتابة

مارس المصريون الكتابة منذ اواخر الالف الرابع قبل المسيح . وقد توصلوا اليها بانفسهم دون ان ينقلوا شيئاً عن اسلوب غريب ، لان الرموز التي اعتمدوها مستعارة من المشهد الذي تبسطه بلادهم امامهم ، لا سيما الحيوانات والازهار الخاصة بها. ولكنهم شأن سكان ما بين النهرين الذين استنبطوا هم ايضاً كتابة قد تكون اقدم عهداً ، لم يعرفوا او لم يريدوا تبسيط طريقتهم في سبيل جعلها اسهل منالا .

تنطلق هذه الطريقة من مبدأ رسم الكلمات – او اجزائها – بصورة المسمى بها . فصورة الساق تعني « الساق »مثلاً وصورة الساعد تعني« الساعد ». ولكن ما لبث الرسم الواحد ان انطوى على معان اخرى كثيرة : المعنى الرمزي ، لتجريد العمل الذي يقوم به المسمى المرسوم او الفكرة التي توحيها رؤيته ؛ والمعنى الصوتي ، لنسخ كلمات يؤديها صوت واحد ؛ والمعنى المقطعي ، لكتابة كلمة مركبة من اكثر من مقطع واحد برموز يقابل كل منها كلمة ذات مقطع واحد ؛ والمعنى الابجدي اخيراً لاربعة وعشرين رمزاً يقابل كل منها حرفاً اما صحيحاً ولما قريباً من حروف العلة . وقد وجب ، امام خطر الالتباس والتشويش الدائم ، توضيح معنى كل رمز من الرموز بسبب انطوائه على مثل هذه الفروق الكثيرة. لذلك وضعت اشارات تحديدية الى جانب الكلمة التي يراد كتابتها بهذا الشكل او ذاك . وهكذا ، بعد ان توصل المصريون الى الابجدية بتحليل الاصداء التي ترافق الصوت ، لم يهملوا ، حين اعتمدوها ، الاساليب الكتابية القديمة ، بل جعلوا من الابجدية طريقة اخرى جديدة واستعملوها بالاضافة الى الاساليب الاخرى . فكانت النتيجة تعقيداً كلياً .

لم تبسّط الا الرموز نفسها . فكان الرسم الاساسي يتطلب مهارة ورشاقة ويحد من السرعة في الكتابة بما يستلزمه من تفاصيل وفوارق . ولم يحتفظ به ، على نمطه هذا ، الا للكتابة على الخشب او الحجر او المعدن ، اي ، عملياً ، للنصوص الرسمية التي اوجد بها عنصراً زخرفياً للابنية التي تكاد تضطبغ كلها بصبغة دينية . لذلك اطلق الاغريق على هذه الرموز اسم « الهيزوغليف » اي » النقوش المقدسة » . اما الكتابة الرائجة التي شُوهت واقتصر فيها على القسم الدائري من الرموز ، فهي اولا الكتابة « المقدسة » (وهذه التسمية كاذبة) المعتمدة على البردي في العهد الفرعوني كله ، وثانياً الكتابة « الشعبية » في عهد الانحطاط .

الكاتب : المدارس و « بيوت الحياة »

ومهما يكن من الأمر، فان تعلم القراءة والكتابة كان امراً شاقاً يتطلب سنوات مراس طويلة . وكان هناك « علم » حقيقي للكتابة يحصّل ببطء في مدارس القصر او المعابد التي يبدأ التردّد اليها منذ الصغر . فالتارين تبدأ على الواح من الحجر الطري، ، او على قطع خزفية ، قبل ان تلازم على البردي . ولم يهمل استعمال هذه الخزفيات قط ، حتى في الادارة ، للوثائق الثانوية . وقد توافر في مصر النبات المائي الذي يؤمن المادة الخام للبردي ؛ ولكن اليافه تقتضي تحضيراً طويلاً قبل ان تصبح لفافات وترسم عليها الرموز بواسطة منقش مخضل في الحبر .

ولم يقتصر التمرين على الناحية المادية ، بل رافقه ، بحكم الضرورة ، ترويض عقلي صاعد يستلزم ، فيما يستلزم ، قراءة النصوص ونسخها وتفسيرها واستظهارها . وبهذه الطريقة ، كانت معارف كثيرة تسلك طريقها الى ذهن التلميذ ، فيتدرج رويداً رويداً الى تعاليم تتباين فيها صفة التخصص ، ويقطع فيها اشواطاً بعيدة ، اذا ما اقترن انقياده بالنشاط اللازم . فكان طبيعياً والحالة هذه ان يسود الاعتقاد بان العلوم جميعها ، من حيث انها تؤلف كلا مع الكتابة التي هي بمثابة المفتاح لها ، اوحاها للبشر الاله الكاتب « طوخ » .

وتفسر هذه الظروف المادية ، الى حد بعيد ، النفوذ الذي تمتع به الكاتب ، بصرف النظر عن سلطته كعضو في الادارة او الكهنوت . فهو قد استقى العلم ، طيلة سني طفولته ، من مصادر يستحيل على الجاهل الاقتراب منها . لذلك فهو لا ينتخب من الطبقات الاجتماعية الدنيا ، اذ ان هذه الدروس الطويلة اعتبرت ترفاً كمالياً . فكان تعقيد طريقة الكتابة ، والحالة هذه ، حاجزاً اجتماعياً لا يمكن تجاوزه .

وكان في بعض المعابد ، الى جانب مدارس الكتبة ، معاهد تعرف « ببيوت الحياة » لان الطب كان احد التعاليم الرئيسية التي تتلقاها فيها نخبة الطلاب . وكان قوام هذه « البيوت » الاول مكتبة كاملة ؛ وينتاول التدريس فيها الاستطلاع ، والحساب وتدوين حوليات الاله او الملك المقدسة ، والتعمق في العقائد الدينية .

تباهى كثير من الملوك بمعارفهم الواسعة ، ولا عجب في ذلك . افلا يعرفون اكثر من امثالهم ، بفضل مركزهم ، كل الاسرار الالهية ؟ وتباهى كثير منهم ايضاً بعلائقهم ببيوت الحياة وبسخائهم عليها ، لا لانها ملحقة بالمعابد فحسب ، بل لانها بيوت الحياة . وفي عهد الاحتلال الفارسي نفسه ، جرى ترميم احد هذه البيوت في معبد سايس الرئيسي باسم داريوس الاول : « اسسته وادخلت اليه كل تلامذته الذين اخترتهم من اصل عريق لا من بيئة وضيعة ؛ وجعلت عليهم ، لكل الاعمال ، علماء في كل الحقول ... » وبالرغم من ذلك ، فاننا لا نلمس هنا مجهوداً او تعطشاً للمعرفة شبيهين بما ينم عنه قيام مكتبة اشوربانيبال في القصر الملكي نفسه . ربما كان امنوفيس الرابع اخناتون لاهوتياً ؛ ولكن اسلافه وخلفاءه ، على معرفتنا بهم ، يبدون وكأنهم كرسوا نفوسهم لمهامهم الملكية ، مؤثرين الاستفادة من نشاط العلماء العقلي على الاسهام شخصياً فيه .

العلوم الصحيحة

ثم ان العلم نفسه ، في معناه المحصور ، يخضع للرغبة في فعاليته العملية لا للرغبة في المعرفة الحقيقية عن طريق التفسير . فهو انما يبحث عن صيغ ذات فعالية دون اكتراث لبلوغ التجريد في اكتشاف الصلة القائمة بين ما يلاحظه من محسوسات .

يحتل علم الحساب ، الصروري للادارة ، مركزاً رفيعاً مرموقاً ؛ وله المقام الاول في تربية كاتب الغد . ومع ذلك فانه لا يزال علماً أخرق . واذا طبق المصريون القاعدة العشرية ، فانهم ، كغيرهم من شعوب التاريخ القديم ، قد جهلوا الصفر . عرفوا الجمع والطرح وجهلوا العمليات الحسابية الاخرى التي لم يستطيعوا اجراءها الا بالاستناد الى العمليتين الاوليين . اما الهندسة فلا تسمو ابداً الى النظرية . فيبدو ، بكلمة مختصرة ، ان الاغريق قد جمّلوا الواقع الراهن الواهن حين نسبوا الى اقدم علمائهم تحقيقات كثيرة منقولة عن مصر . لا شك في ان نجاحات المهندسين المصريين التقنية ، في حفر الاقنية وتشييد الابنية الضخمة ، امر لا ينكره احد عليهم . ولكن هل يدل ذلك على شيء آخر غير المهارة التي هي ثمره التجربة والاختبار ؟

وما من ريب في ان التبصر في السماء قد أثار اهتمام شعب اسكن فيها كبار الآلهة ، وبنوع أخص ، اهتمام كهنة هليوبوليس المكرسين لعبادة الشمس ، رع . وقد حمل رئيس كهنتهم هذا اللقب الرسمي : « اكبر الرائين ». فقد لاحظوا اذن بعض الاحداث الفلكية ، ولكن لم يبلغوا بملاحظاتهم ما بلغه سكان ما بين النهرين من علم منظم مفيد. فلم يعيروا اهمية، مثلاً ، للكسوفات الشمسية ولم يهتموا لادراكها قبل حدوثها . اجل انهم قد حققوا فتحاً مبيناً في اعتماد الروزنامة الشمسية ، ولكنهم لم يقدموا على تحسينها بالرغم مما انطوت عليه من شوائب .

وقد انطلقوا ، للتوصل الى هذه الروزنامة ، من اتفاق غريب لا يصح الا على خط واحد من خطوط العرض ، هو خط منف – هليوبوليس ، مما يحدد مكان الملاحظة بالضبط والوسط العلمي الذي استخلص نتائج هذا الاتفاق . فكل سنة ، في التاسع عشر من تموز ، وهو اليوم الذي تظهر فيه « مياه التجديد » الاولى ، اي ابتداء الفيضان الذي تتوقف عليه حياة البلاد ، تبزغ فوق الافق ، مع اشراقة الشمس ، النجمة سوتيس (الشّعرى)التي يمثلون بها ايزيس . وبين هذا التاريخ والتاسع عشر من شهر تموز التالي تمر ثلاثمائة وخمسة وستون يوماً قسموها ، بتأثير من الروزنامة القمرية القديمة ، الى اثني عشر شهراً متساوياً من ثلاثين يوماً، واضافوا اليها خمسة ايام متممة . وهنالك ، كما نعلم ، نقص يقارب ربع النهار ، يتولد منه في البدء انحراف طفيف لا يلبث ان يلاشي التوافق بين الروزنامة الرسمية وبين مواعيد تعاقب الفصول وفيضان النيل وبزوغ سوتيس مع اشراقة الشمس .

استناداً الى هذه المعطيات ، استطاع علماء الفلك المعاصرون ان يثبتوا ،بعملية حسابية ، ان الاتفاق الذي كان منطلق هذه الروزنامة الشمسية قد حدث اما بين ٢٧٨٥ و ٢٧٨٢ ، واما بين ٤٢٤٥ و ٤٢٤٢ قبل المسيح . ومن الجائز مبدئياً ان نتردد بين هذين التاريخين ، ولكن بعض الدلائل تدفع بنا ، على العموم ، الى تفضيل التاريخ الاقدم .ومهما يكن من الامر، لا سيما وان الشيء لم يتقرر الا بعد سنوات طويلة من الملاحظات السابقة ، فان هذا النجاح الباهر يرتقي الى عهد متطاول في القدم .

انه لنجاح هام ، ولكنه نجاح غير مكتمل . ولم يتقرر على معرفتنا ، اضافة يوم سادس

متمم الى الايام الخمسة الاخرى ، الا في السنة ٢٣٨ قبل المسيح في عهد احد البطالسة . وهنالك على نقيض ذلك ، نصوص كثيرة تعرب عن الحزن الذي تسببت به « السنة العرجاء » . وقد مست الحاجة عملياً الى اصلاح عيوبها ، ولدينا الدليل الثابت على ان العلماء قد شرعوا بالفعل يجرون العمليات الحسابية اللازمة . ولكن روزنامة الثلاثمائة وخمسة وستين يوماً ما زالت ، مع ذلك ، تعتبر رسمية دون غيرها .

العلوم الطبيعية والسحر

كان امام الطب ، بفضل معالجة الجثث ، حقل اختبار واسع وكبير الفائدة ، فاستثمره ايما استثمار وبلغ شهرة واسعة جداً اعترفت له بها الشعوب المجاورة . فطلب الملك الفارسي قورش طبيب عيون من الفرعون واعجب الاغريق بعدد الاطباء المصريين المرتفع وبتخصصهم في الحقول الصحية المختلفة : العيون والرأس والاسنان والبطن والامراض الداخلية ، كما يذكر هيرودوتس . واعجبوا كذلك بآرائهم الصحية الدقيقة حول تناول الاطعمة مع ما تفرضه من ادوية منظفة ومقيئة متكررة استعملها المصريون بانقياد وطوعية فجعلت منهم ، بمساعدة المناخ ، « اوفر الناس صحة سليمة » . ربما كانت هنالك « كتب مقدسة » طبية ، اي مستظهرة ومحفوظة في المعابد ، ولكن البرديات التي تعطينا اليوم فكرة عنها توحي لنا ان العلم الذي انطوت عليه ، بما في ذلك علم التشريح ، كان علما موجزاً ويفتقر ، في اكثر الاحيان ، الى مبادىء الاساليب العلمية نفسها . وقد ذكر ذيودوروس الصقلي ان الطبيب يتعرض للدعاوى وعقوبة الموت اذا ما انحرف عن التعاليم الطبية القانونية ، لان « المشترع قد ارتأى بانه يصعب اكتشاف طريقة علاجية افضل من الطريقة المعتمدة منذ أمد بعيد التي توصل اليها رجال الفن » . وبديهي ان هذه المحاذير لم تكن لتشجع المحاولات في سبيل التقدم .

يصح القول نفسه عن علم الكيمياء المقتصر على الاختبار التقني في صنع المعجونات الملونة والقيشاني والزجاج وفي استخراج المعادن ومزجها ويجدر التنويه هنا بما توصل اليه هذا الاختبار من ابداع واتقان .

ولسنا بحاجة للتشديد على « بيوت الحياة » الكهنوتية ، لنلمس مرة اخرى ان للديانة تأثيرها . فهي قد أفرزت في نطاقها الخاص مركزاً هاماً للسحر فكيف لا يتمتع السحر ، منذ البدء ، بمركز رفيع في النطاق العمي او في النطاق الذي قد يصبح علمياً ، لا سيما وان العمل فيها يتناول الطبيعة نفسها ؟ لذلك فقد استمر وجود السحر بصورة دائمة . والعقل لا يخضع البتة لقوانين المنطق وحدها . لا بل انه ما شعر قط بوجودها . ويسهل علينا هنا ان نسرد الامثلة الكثيرة . فالروزنامة مثلاً تنطوي على أيام فأل وايام شؤم تبررها بعض الحوادث في حياة هذا او ذاك من الآلهة ؛ وهذه الايام ذكريات سنوية لهذه الحوادث . وهنالك ادوية تشفي المرضى في بعض الاشهر ، بينما هي تبقى دون جدوى في اشهر اخرى . وترافقها ، عند الاستعمال ، الرقى

والمراسيم . وقد حرص الناس على ان يحملوا التمائم والعوذ من كل نوع . ولم يكن ذلك وقفاً على الشعب وحده . ففي عهود الانحطاط على الاقل طغت موجة السحر في كل مكان .

وكان للسحر اثره البين في الطب بنوع خاص، لأن علمي التنجيم والكيمياء لم يبرزا قط في مصر بروزهما في بلاد ما بين النهرين . غير ان الرومان والاغريق ، الذين تأثروا بالسحر الى حد بعيد، لم يحسنوا التدقيق في ما رأوا . فقد بدا لهم الشرق عموماً مهداً للمعارف السرية التي كثيراً ما نهلوا منها عن طريق اشخاص التبس في جنسياتهم .

الأدب

يستدل من احد التقاليد المشكوك بها كثيراً ان افلاطون قد أقام اقامة طويلة في مصر وانه أمعن في التحدث الى كهنة هليوبوليس . واذا هو لم يحصل بالقرب منهم على معارف فلكية جديدة ، فان في قوّة عقيدتهم حول الحياة الثانية ما اثر فيه وعمل فيه عمله . وان « نصوص الاهرام » ، في هذا الموضوع ، جديرة بكل تقدير . ولكن الأدب المصري الذي لا يزال يحرّك منا الشعور احياناً ليس مديناً بديمومته الى هذه النصوص .

كان الأدب المصري مكثاراً ولم يصل الينا منه الا النذر اليسير . وقد أتاحت لنا الظروف ، اكثر من مرة ، فيما سبق ، ان نذكر بعض انتاجاته ، لا سيما ما يتصف منها بصفة سياسية واخلاقية ، كـ « التعاليم » و « الأحاديث » التي تعبر ، بفم الملك او بفم احد العظماء ، عن افكار يتجلى فيها نبل رفيع صارم . ويبدو ان العصر الذهبي ، لمثل هذا الأدب ، هو عهد الامبراطورية الوسطى ، الخليفة المباشرة لعهد الفوضى الذي بلبل الروح المصرية في اعماقها ، ومقيمة النظام الجديد الذي ارسته على مثالية لها نزعاتها الجديدة . ولكننا لا نعرف هذه النصوص الا عن طريق نسخ متأخرة عنها ، مما يثبت استمرار شهرتها .

وهنالك مؤلفات اخرى تنتسب الى ألوان أدبية مختلفة . فقد ترك لنا عهد تل العمارنة نشيداً لأتون ينسب الى الملك نفسه ويفيض بنفحة شعرية أوحاها له منظر الطبيعة المباشر . ولكن هذه السذاجة وهذه النضارة اللتين سمتا هنا الى مستوى اللاهوت ، تبرزان ايضاً في مؤلفات معدّة لعامة الشعب ، اعني بها القصص . تظهر القصص منذ الامبراطورية الوسطى وتنتشر انتشاراً كبيراً ابتداء من السلالة الثامنة عشرة . وهي على قسط كبير من الواقعية والخيال المجنح والسخرية ، وكأنها الند الطبيعي للنقوش الناتئة والصور التي تعالج مواضيع الحياة اليومية . ولكنها هي ايضاً تفسح مجالاً كبيراً للسحر ، ايماناً من مؤلفيها بالحصول على رضى سامعيها اذا ما نقلوهم الى نطاق ما هو مدهش وعجيب . وكيف لا نذكر اخيراً الشعر الغنائي الشهواني الذي يسوّغ كل شيء في « اناشيد الحب » ؟ قد يكون هذا الأدب الخيالي نهل من منبع مشترك واحد في الشرق الأدنى ، وقد يكون هو نفسه أسهم في تموين هذا المنبع . بيد انه من الجليّ ، مثلاً ، ان في « قصة الغريق » بعض اوجه التشابه بحوادث مغامرات أوليس او سندباد البحري وان « اناشيد الحب » تذكر احياناً بنشيد الاناشيد .

الخـاتمة

الحضارة المصريـة والعالم القديم

ان الحضارة المصرية ادن ، بالرغم من انكماشها البالـغ ، قد اتصلت أحياناً بالأجنبي . غير ان هذا الاتصال لم يتصف بطابع الاهمية عملياً .

وهي مدينة باستقلالها الى التلاحم الذي ربط كل مظاهرها بسلطة الدولة والآلهة المطلقة . اجل ، قد نجد في غير مكان مبدأ تلاحم مماثل ، ولكن مصر وحدها طبقته بمثـــل هذه الشدة وهذا التطاول ، وفي بلاد على مثل هذا الاتساع وهذه الثروة ، وعلى شعب بمثل هذه الكثرة وهذا الحنوع . وان اتفاق هذه الظروف المؤاتية التي توفرت بفضل الانسان والطبيعة معاً يضفي عليها صفة مميزة بالغة الأهمية .

كانت مصر القديمة ولا تزال مدينة لهـا بمكانتها وشهرتها . وبالرغم من ان الحضارة المصريه قد عمّرت اكثر من اية حضارة قديمة ، فانها قد اندثرت اليوم واضمحلت . وقبل زوالها بألف سنة تقريباً ، لم تقوَ على البقاء الا بالمزيد من التحايل والعنـاء ، عاجزة لا عن النهوض والتجدد فحسب ، بل ايضاً عن ادراك المعنى الحقيقي للتقاليد التي لم تتخل عنها . فهنالك مدلولان : الانسان والتقدم ، اجتمعا وانتصرا في كل مكان ؛ اما هي فقد جهلتهـــا وعجزت بالتالي عن استساغتها والافادة منها .

ولكنها قبل زوالها بزمن طويل قـــد أثرت في بعض الحضارات الاخرى . فوفرت للملوك كثيرين مثلاً اعلى للعقيدة الملكية التي تبرر سلطتهم المطلقة ، ولتنظيم الادارة التي توجـــه الثروات نحو الحكومة المركزية . اما الملكيات الهلينية بنوع خاص – وقد أقامت احداها في مصر – والامبراطورية الرومانية فقد اخذت عنها بعض الاتجاهات العامة على الأقل ، واقتبست احياناً بعض نظمهـا المحكمة . كذلك اقتبست عنهـــا الحضارة الاسكندرية ، التي ترعرعت واردهرت « على مقربة » من مصر ، الميل الى الافتتان والسخرية والاحساس بالظرف الرفيـع ، وكلها يميز بعض مظاهر فنها وادبها . وقد انتشرت اخيراً عبادة ايزيس الهمـا في بلدان عديدة ، كما كان للسحر ، احد مظاهرها ، سوق رائجة في الكثير من المناطق .

ولكن واحداً من هذه المنقولات لم يمس جوهر الامور الحقيقي . ولا عجب فانما خلق هذا الجوهر لمصر ، ولا سيما لمصر في الالفين الثالث والثاني .